

رائحة البلح

راضية أحمد

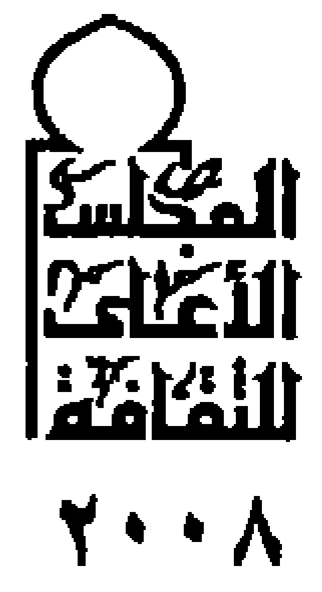


المجلس الأعلى للثقافة

رائحة البلح

ملامح من حياتى

راضية أحمد



٢٠٠٨

المجلس الأعلى للثقافة

بطاقة الفهرسة

إعداد الهيئة العامة لدار الكتب والوثائق القومية

إدارة الشئون الفنية

أحمد ، راضية

رائحة البلح .. ملامح من حياتى / تأليف : راضية أحمد

القاهرة : المجلس الأعلى للثقافة ط ١ ، ٢٠٠٧

١٣٦ ص ؛ ٢٠ سم

١ - القصص العربية

(أ) العنوان ٨١٣

رقم الإيداع ١٦١١١/٢٠٠٧

الترقيم الدولى 977-437-426-6

طبع بالهيئة العامة لشئون المطابع الأميرية

شارع الجبلاية بالأوبرا - الجزيرة - القاهرة ت ٢٧٣٥٢٣٩٦ فاكس ٢٧٣٥٨٠٨٤

El Gabalaya St., Opera House, El Gezira, Cairo

Tel. : 27352396 Fax : 27358084

الفهرس

صفحة

الفصـــل الأول : بلاكونة البنات 5

الفصل الثاني : ليالى الآحاد الدافئة 13

الفصل الثالث : جدتى زينب 31

الفصل الرابع : زواج مــدبّر 39

الفصل الخامس : حفرة 73

الفصل السادس : أنا من ضيع فى الأوهام عمراً 81

الفصل السابع : الأشياء الحقيقة ليس لها بريق 109

الفصل الثامن : الرحيل 129

إهداء

إلى الذاكرة .. أنبل إبداعات الخالق .. دونها ما توهجت روحي المنطفئة ، وما اجتمعا من جديد أبي وأمي رغم الثرى ، ورغم النهايات الفاجعة للأحبة والخلان.

إلى كل النبلاء المغتربين

إلى هاشم .... سلوى الروح

مناي أن أعيش حتى أراك تقبض على الحلم بيديك .

إلى نجليّ سارة عبد العزيز ، وأحمد عبد العزيز ..

لعلهما يعرفان في يوم ما بأن السعادات الصغيرة التي عشناها ..

هي التي سوف تسكن بالذاكرة بعد رحيلي ..

فتعلما كيف تتشبثان بها .

ماما

الفصل الأول

بلاكونة البنات

كأن حياتى تركتها ورائى أو هى التى تخلت عنى ، وأصبح الحاضر لا أعرفه ، وكل تفاصيله تبعدنى عن معنى الحياة التى عشتها ٠

هذه الأيام لم تعد برأسى ذكريات جميلة ، حين تأتى أراها كالخاطر وغير حقيقية ؛ فقد أبدعتها أوهامى بمهارة ، ولم تعد فى صدرى تلك الأصوات المتضاربة ، وذلك الصراع المؤرق والملتهب٠

لقد خمدت كل الأصوات ، وكأن النبض توقف ، وماتت معه الأفراح ، وتخلى عنى كل صوت حتى صوت الأحزان٠

ما الذى حدث لي بعد رحيل صلاح صبرى ؟

هل ذهب كل البشر الحقيقيين وخلت أيامى من الطيبين ؟

ما هذا السكون الذى أحسه ؟

كأن كل شيء بداخلي قد ولّى ، وذلك الحنين الملتهب دائمًا إلى الطفولة قد همد ٠٠٠ بعثرتُ سنين من العمر الندى رغم يقينى بأنها وهم وعبث ، وكأن حياتى كانت مشروطة بوجودهما ، وكأن الأوهام

المسحورة بها هى المحطة الوحيدة التى من حقى أن أقف عليها ، لأنتظر القطار، هل أنا بعد فرار تلك الأوهام مازلت أنتظره ؟ لكن لا توجد أى محطة مسموح لى أن أقف عليها ، وأرانى أرقب الخلاء وحدى بعد رحيلهم .. لكننى ما عدت أعبأ بوحدتى ، ولا عاد يعنينى ركوب القطار . وبرغم ذلك أرانى واقفة لانتظاره؛ لأن هذا المسموح به والمتاح كى أعيش .. الانتظار .. الانتظار.

ما الذى تحمله لى الأيام الآتية من أمنيات بليدة وأحلام مجهضة ؟ ماذا أفعل بروحى الميتة وأطلالها المنسحبة بعد تخلى تلك النشوة عنى ؟ تلك الأوهام البرّاقة التى كانت تبهرنى كما كانت تلك الشظايا للصواريخ والألعاب النارية تبهجنى وأنا طفلة صغيرة .. لم يكن رذاذها الملتهب يخيفنى ، ولا سخونتها فى يدى تعنينى ، لكنها النشوة الأخاذة والمبهمة لذلك الوهج ، ذلك الألق الزائف .

لقد تخلّى عنى وهمى يا أبى ، ولم أعد طفلة صغيرة تبحث عنك بلهفة محمومة .. أنا البلهاء التى امتلأ قلبها بحيوية الصغار ورأسها بعبقرية المخترعين ، وهى تشكلك من جديد بداخل قلوب الرجال ، بعد أن رحلت أنت وباغتها موتك ، سحبها إلى الماضى .. تلك السنوات التى ولّت هى الزمن الوحيد الذى تهفو روحى له وينبض من أجله قلبى الذابل كنبتة وحيدة ومنسية.

أحاول الآن الإمساك بالحكاية وبخيوطها الحقيقية ، ولم أشلائها،

من أين بدأت وكيف انتهت ، هل حقيقى لن تعود ، وهل أريد الخلاص ؟!
لكنى الآن وأنا أكتب ... هناك ثمة فرح مسَّنى أدركت معه بأننى أريد استمراراً لأوهامى ، وما زلت قادرة على استعذاب حكايتى مع آخر جديد يكون بوجوده معنى للغد .. سوف أنتظره يا أبتى .. وآهٍ من هذا الانتظار الذى يحيى تلك الأصوات بصدرى ، ويبعثنى إلى الحياة من جديد فتحنو علىَّ الذكرى ، وكأنها النور الوحيد فى عالمى ، والمحطة الأخيرة التى أقف عليها وحدى ، حتى يأتى ذلك الذى يشبهك لنركب القطار معًا .. نفوت الذكرى ، وربما نسخر منها ، وتعيش معى فى الحاضر كأب ورجل معًا .. آهٍ مازلت أعبث بنفسى ، وأحطمها بعد ما حدث لى من مرارات .. مازلت أهوى تحطيم الدمية التى تهتف بداخلى .. رغم حبى لها ورغبتى الدائمة فى اللعب معها وإغوائها .

مازال ثمة عذاب باقيًا فى صدرى .. يحرك حواسى .. بصرى .. سمعى ، وآهٍ من تلك الروائح التى تبعثنى من جديد.

أشم الآن رائحة الريحانة ببلاكونتنا .. بلاكونة البنات ، وأسمع صوت اليمام ، وكأنه يحكى لى حكايات خالدة تبدأ مع الصباح وتغيب مع الفجر لتسكن غفوتى ، وأرى كل الألوان للفراشات التى تسبح حول أوراق الشتلات التى كانت أمى تهوى زراعتها بيديها النضرتين ، ثم تجلس بجوارها تحتسى قهوتها قبيل الغروب .. تسرح مع أغنية ، وأنت يا أبى تملأ كل حواسها فتنقل إلينا نشوتها بحبك وأنا بوجهٍ خاص .

* * *

كان منزلنا يقع بإحدى الضواحي بحى شبرا .. يتوسط الشارع الضيق ، وتطل شرفته على الشارع بلبلابتها الغزيرة وخمائلها النفاذة ، وتمتلئ الشرفة بأصوات طيورها من عصافير وكناريا ويمام بأفراخه الصغيرة ، والتى تشبه رائحة زغبها الرطب الفاكهة الطازجة بعد خلطها بالحليب.

فكانت الشرفة بمثابة روضة صغيرة تطل منها من حين إلى آخر واحدة من ست بنات كالبراعم هى أنا وأخواتى ، فلا يستطيع الناظر أن يتجاهل تلك الشرفة بما تحملة من مباهج . فمن ناحية اليمين شتلات الياسمين ببياضه الباهى ، والذى يملؤك بمجرد النظر إليه رقةً وسلامًا على كل من حولك .. يجاوره البنفسج الحالم بعبقه الموغل فى القدم ، والذى يعلّم الأرواح المناجاة .. تتوسطهم شجرة الكاميليا بأزهارها البيضاء والمفعمة بلفحات الشمس بذهبها الربانى ، والذى يوحى عبيرها بقدوم الربيع ، فتتلج النفوس رغم سقوطها سريعًا قبل أن تمسها الأيادى ، وترقد اللبلابة براحة واسترخاء فوق الجدار الفاصل بين الشرفة و [غرفة البنات] كما كان يسميها أبى.

أما ناحية اليسار فتتربع مجموعة من أقفاص الطيور وضعت فوق بعضها بعناية ، تبدأ بأقفاص اليمام التى فتحت بواباتها دائمًا ناحية الشارع لتكون حرة فى الطيران ، وتنتهى بأقفاص الكناريا التى دائمًا تقف بجانبها فى كل مرة واحدة من أخواتى البنات تطل من الشرفة إطلالة سريعة ، ثم تجرى إلى الداخل.

* * *

أحياناً أشعر بأنني أهذى عندما أتذكر تلك الأشياء .. لكن هذياني يدلني إلى حقائق ربما هى التى جعلتنى أتخبط حتى الآن فى حبى لأبى وحبه لنا ورؤيتى للجنس الآخر وما أريده من الرجل .. الأب الغائب أم الذكورة ؟!

كانت أختى الكبرى زينب فاتنة تثير إعجابى .. تبهرنى ملابسها المنسجمة معها بقوة ، وكأنها فى كل ثوب قد ولدت به ، وكأن نسيج الثوب غزل من جسد زينب ، وإذا انسدل شعرها الأشقر تهم لترفعه فى إنحناءة أنثوية ، وهى تجادل أبى فى إحدى القضايا ، وقد فتنتنا بصوتها الحانى الهادئ ، وهى تقرأ لنا قصيدة من قصائدها الحالمة. وكانت تفتننى أنا الطفلة ؛ فكيف لا تفتن الرجال الذين بدأوا يزعجون أبى دائماً بطلب يدها ؟ ولا أنسى وجهه أبداً عندما يشعر بأنها تميل لأحدهم .. هذا الوجه الشارد والحزين بعينيه المبهمتين القلقتين ليست لأب يغار على ابنته ، ولكنها كعيون عاشق.

* * *

أجلسنا جميعاً فى هذا اليوم فوق السجادة ، وقد توسطنا ، وكان البعض منا يملؤه النعاس ، لكن جديته فى هذا اليوم وتوسطه لنا فى حجرتنا قد أوحت لنا بأهمية الأمر ، وهو يحاور شقيقتى الكبرى فى الحديث ، ونحن مشدودات له ننتظر منه فرماناً واضحاً من عينيه اللتين

نعرفهما جيداً ، وكانت أمي تتحرك حولنا باضطراب وقلق ، وتنظر إلى أبي في شك كأنه مقبل على إثم فيرمقها ، ثم يتجاهل نظراتها وقد افتعل المزاح ، لكنها ترمقه من جديد بعينين مفعمتين بالخوف .. عندها سحب من جيب سرواله شيئًا صغيراً ملفوفًا بعناية بقماش أحمر مخمل ، برغم صغر سني ، لكنني كنت أحس بأمي ، وهي تحاول أن تكتم براكين من الغضب ، وأبي يخرج من قطعة القماش محبساً صغيراً ذهبيًا ، ويضعه بيد أختي الكبرى وعيناه مفعمتان بنصر وقوة وهو يقول :

– من خطيبك ؟

– ترد شقيقتي وهي تضحك ، وقد ملأها الزهو :

– أنت خطيبي يا بابا .

وأفر أنا إليه أتمسح به وأنا أردد :

– وأنت كمان خطيبي يا بابا .

تنقلت أخواتي واحدة تلو الأخرى تكرر نفس العبارة ، وقد انسحبت أمي إلى المطبخ وقد ملأها الوجوم.

* * *

يلف البيت سكينة محببة إلى نفسي فأغفو ، وقد غلفت قلبي نشوة لا أستطيع وصفها الآن ، لكنها تذكرني بتلك النشوة التي تدغدغ

الأجساد بعد حموم بماء ساخن وصابون عطر ، وعزيز علينا يتحدث بصوت خافت حانى ونحن فوق الأسرَّة تدفئنا الأغطية والصوت خافت مبهم، وبالرغم من أن كلماته ليست واضحة ، لكن تسحبنا نشوة فالصوت كان من إنسان حميم جداً إلى قلوبنا ، فتلفنا طمأنينة ترتخى لها كل العظام فى استسلام وحب يعبر عنه الوجه والفم بنصف ابتسامة شفافة وبريئة مهما كان ما يحمله قلب هذا النائم من شر.

الفصل الثانى

ليالى الآحاد الدافئة

لم تكن الأيام تعنينى من هذا الزمن ، غير أيام الآحاد ولياليها حين يسهر أبى معنا .. فالغد عطلته ، ولا تستطيع أمى أن تفتح فمها ، وتنظر إلينا بغيظ أن نذهب لننام ، وتدعها هى وحدها لتحظى بمجالسة أبى وحديثه الجذاب. فمسموح لنا فى تلك الليالى أن نسهر معه حتى بعد منتصف الليل ، وبرغم جمال أمى الأخّاذ فى تلك الأمسيات ورائحتها الزكية ، وحرص أمى الدائم على نظافتها حتى تصبح بشرتها كنوع نادر من العقيق الوردى الذى لا يستطيع أى رجل مقاومته بمجرد النظر إليه ... يستغرق أبى بأحاديثه معنا ، لكنه كان يرمى لهذا الجمال بتحية بين الحين والآخر ، معبراً بنظرة أو إطلالة سريعة أو همسة فى أذنيها ، ونحن مشغولات بما نسمعه من إسطوانات قد اقتناها أبى من أحد المزادات ، وكم تمنيت كثيراً أن أسمع غزل أبى لأمى ، وكيف يغازل هذا الرجل امرأة .. لكننى عندما أرمق أمى فى تلك اللحظات وأراها محمرة الوجه وفى صوتها غنج ، لكنه مغلف بوقار يزيد من خطورته فى سحب أبى من بيننا وحرماننا منه ، عندما يسيطر على رأسى هذا الهاجس .. أهم بخلق شىء جديد يجعله يستمر فى الجلوس معنا كأسطوانة جديدة ، كتلك الإسطوانات التى يهوى أبى أن أرقص عليها أو أبدأ الحديث عن

موضوع يشغله ويؤرقه ، أو أهمس لشقيقتى الكبرى أن تقرأ لنا قصيدة من أشعارها الحالمة حتى تمل أمى وتذهب إلى مخدعها ، ويستمر السمر حتى يغافلنا النوم وصوت أبى يملؤنا .. عندها أتذكر أمى فيرقّ قلبى لها ويعذبنى ضميرى ، لكننى أشعر بالراحة عندما أتابع أبى ، وهو ذاهب إليها تملؤه النشوة ، وهو يسير بالممر الطويل المؤدى إلى مخدعها الذى سوف يغرقه برائحة عرقه الطيبة ، وعندما يصلنى صوت الباب الموصود ، أذهب لأنام وقلبى يمتلئ بحسرة صغيرة جداً .. لكنها ثقيلة تتعلق فى الفراغ بقلبى ؛ فلا أستطيع الانفلات منها ولا النوم فوقها بثقلى والضغط عليها بجسدى حتى يهدأ وأنام.

لكننى لو قضيت الليل بطوله أبحث عنها لن أطول موضعها ؛ فهى معلقة ، ولا أستطيع أن أضمها وحدى ، ولكن لابد أن يطفئها جسد آخر يظل معى طوال الليل .. إنه أبى الذى يستطيع وحده ذلك ، بعد أن أغفو فوق صدره كما تفعل أمى الآن وقد أغرقها برائحة عرقه الطيب ، والتى تبعث فى القلوب الطمأنينة .. أما تلك الحسرة فمازالت حتى الآن تؤرقنى ، وكأنها تشدنى من نومى ، وتعلقنى فى الفراغ دون جدوى لانتظار صوت أبى الذى كان يردنى إلى سكينتى ؛ فقد رحل صوته كما رحلت رائحة عرقه الطيب ، وقبلاته التى تشبه رائحة البلح الأمهات.

* * *

فى الصباح بكارة يوم الأحد أفيق على تلك الرائحة .. رائحة البلح الأمهات ، وقد وقف أبى بمطبخ بيتنا يطهو فطورنا ، وكان البلح الأمهات بالسمن البلدى .. ويكون هذا الفطور صبيحة يوم الأحد أغلى شيء بالنسبة لى ، وفى المدرسة عندما أهم بأكل سندوتشاتى أفتحها أولاً ، لأملأ أنفى وحواسى بتلك الرائحة الزكية ، وأتذكر أبى كالطيف الوديع ، وهو جالس بجانب أمى ، وقد نعمت به .. ترقد ملء جفونها ، وكأنها لاتزال برحم أمها.

* * *

صوت أجراس الكنائس بشبرا يملؤنى حتى الآن ، وخاصة أيام الآحاد أيام الروائح والصور .. وصخب الأصوات وعمقها ، والعيون الزاهدة ، إلا من الفهم العميق للعالم .. تلك العيون التى مازال أصحابها القساوسة يشغلون حيزًا حقيقيًا فى قلبى ، وأنا أرى عيون الآخرين الثملى والمثقلة بالخطايا والمرتجفة بالشهوات.

مازلت أشم روائح يوم الأحد بألوانه الطازجة للصور الملونة ، التى تحكى قصص الكتاب المقدس ، ورائحة لخبز طازج ، مبارك من القساوسة ، يخبز تحت وطأة ألحان خاصة وتراتيل مورثة ، مختوم بطلاسم لن تبرأ أبدًا من سحرها ، وروائح كثيرة لعطور صنعت خصيصًا لهذا اليوم ، وزيوت تشفى من العلل صنعت من الكافور وزهرة

مريم والخردل ، وروائح لصابون محبب إلى نفسى .. كان الأطفال يستحمون به قبل ذهابهم إلى الكنيسة يوم الأحد ، مهللين مع أسرهم .. تختلط روائحهم الذكية برائحة الآباء والأمهات المعطرة ثيابهم بالزيت الذى باركه القس ، وروائح لأطعمة مختلطة جاء عبقها من حوانيت قريبة وبعيدة .. كل تلك الروائح تختلط برائحة حقيبتى المدرسية ، بعد أن أكلت ما بها من سندوتشات أعدها أبى ، وكانت من البلح الأمهات ، والذى يظل بعضا من رائحته ليسكن بين الكتب وجلد الحقيبة ، واللذين ينعمان فى تلك اللحظات بروائح العنبر والبلح ، وأنا فى حالة من النشوة منشغلة بتلك الصور الملونة ، والتى تعبر عن الحكايات المقدسة برقة وعذوبة ، ولا أنسى وقع ألوانها على قلبى .. تلك الألوان المبهجة وارتباطها لدىَّ بالعقيدة والتاريخ ، والتى سحبتنى معها سنوات طويلة ، وكأننا نسبح أنا وتلك الصور فى سماء طاهرة تسكنها الملائكة ، ولا تتركنى إلا وأنا داخل الكنيسة ، وهى حولى وفوقى تلتصق بالجدران بأحجام هائلة تملؤنى رهبة تحد منها شيئًا فشيئًا تلك التراتيل التى تبدأ فى بث الخدر بأطرافى. وقد استسلمت لهذا الاسترخاء وأنا منتشية بضوء الشموع فى أيدى الشماسين الشبان وعيونهم المملوءة بسلام لم أره إلا فى تلك العيون ، وكثيراً من عيون المسلمين الزاهدين بالمدينة المنورة ، وعيون من اقتربوا من الموت والحقيقة.

.***

***

يسمعنى أبى عند رجوعى من المدرسة ، ويحاول بمهارة أن يخلع الخاتم الذى اشتريته من أمام كنيسة مسرة ، ليبدى ملاحظاته الذكية ، وعندما يرى العذراء محفورة فوقه باللون الأزرق ينظر فى وجهى ، ويقول برقة لأمى بأنى أشبه مريم العذراء ، ثم ينظر إلىّ بحب لايخلو من الخوف ، ويقول :

– كل الأنبياء من عند الله .

وأحكى له عن معاناة صديقاتى وهن يحفرن الصليب فوق معاصمهن اليمنى ، وما مدى عذابهن ؛ فيقول :

– المسيحى الحقيقى مثل المسلم الحقيقى مثل اليهودى الحقيقى .. كلهم مؤمنون ، والدين هو السلوك الحسن.

وأجادله بزهو فى المسيحية ، فيسمع بصمت لكل ما أقوله ، ثم يقول : عندما تكبرين وتقرأين الأديان جيداً .. سوف نتحدث كثيراً .

تزمجر أمى فأسمعها تتهمه بأنه السبب فى دخولنا مدارس مسيحية ، فأشكو له من صديقتى (هالة جرانت) ، وأننى اكتشفت تآمرها علىَّ هى ومدرسة العلوم وزميلاتى المسيحيات اللواتى تجمعهن هذه المُدرِّسة فى منزلها ، وتعطى لهن دروسًا مجانية قبيل أيام الامتحانات دون علمى ودون علم زميلاتى المسلمات ، وعندما واجهت هالة بالأمر ، امتلأت عيناها بالدموع ، وقبلتنى بخجل وانكسار ، ووعدتنى بأن كل الذى تحصله من الدروس سوف تخبرنى به.

وبعد المدرسة ذهبت أنا وهالة إلى الكنيسة لزيارة السبع بنات ، لتمس الراهبات لى لوزتى ، لتشفى من الالتهاب ، وبعد ذلك دبرنا مؤامرة لنبهج قلبينا ، وهو مغازلة أحد الشماسين ، وكانت رغبتى فى هذا هو سماع أصواتهم الوقورة والهادئة .

وعند ذهابنا إلى منزلها بشبرا رمت هالة بحقيبتها وجلست فوق البيانو ، لتعزف لى أغنيتى المفضلة «تخونوه» ، وهى تنظر إلىّ بفرح كلما رأت نشوتى بتلك المعزوفة ، وبعد الظهيرة أكلنا بالشرفة موزاً ، ونحن نلهو بسيرة المسيحيين والمسلمين .. عندها سرحت هالة وهى تقذف بقشر الموز فوق إحدى الشرفات ، وقالت بأسى :

– هنا يسكن حبيبى المسلم .

لم يبدِ أبى أى غضب تجاه هالة ، ولكنه أزال عن قلبى ماتبقى من ضيق تجاه صديقتى ، وقال وهو ينظر إلى تلك الصور الملونة التى اشتريتها من أمام الكنيسة :

– أجمل ما فى المسيحيين ولاؤهم لبعض.

ثم قال وهو يحاول أن يخفف عنى :

– لماذا لا تزورك هالة ؟

– قلت بفخر : هى ربة منزلها ، فأمها طريحة الفراش بعد رحيل زوجها جرانت الذى كان يعمل مديراً لأستديو تصوير للسنيما .

لذلك توارثت هالة الفن ولا تمارسه إلا لإسعاد أمها التى تمكث معنا أحيانًا فوق مقعدها المتحرك ، وهالة تقوم بكل دور أمها نيابة عنها بجانب وقوفها ساعات طويلة لإعطاء أمها حقن الأنسولين فى مواعيدها المحددة ، ولا تستطيع صديقتى أن تترك المنزل ، إلا للذهاب إلى المدرسة. واستمر حديثى مع أبى عن هالة كثيراً ، وعبرت له عن دهشتى من هالة والوجهين اللذين تتحرك بهما ؛ فهى مطيعة هادئة ، وتلميذة مجتهدة بالمدرسة لا تتشاجر مع أحد أبداً ، وإن تحرشت بها زميلة ردت عليها بأدب وبعبارة صغيرة ، ثم تستأذنها فى الانصراف ، وهى تسير بحكمة تجعلها تبدو أكبر من سنها. وعندما أنهرها على سلبيتها تنظر لى بعينين عميقتين فى لون قشر البندق ، وهى توارى حزنها بابتسامة شاحبة ، وتقول :

– لو تشاجرت فسوف تعرف أمى بمجرد النظر إلى وجهى ، وهى مريضة لا تتحمل ذلك .

وبمجرد دخولنا منزلها تمتلئ ببهجة مصطنعة تجعلها تتحرك كالدمية المعلقة بالخيوط ، والتى تبدو بفضل الأيدى التى تحركها ، تكاد يبث فيها الروح ، وبين اللحظة واللحظة يأتى ارتجالها الحقيقى ، لكنه مفعم بالحزن. أما والدتها هى الأخرى فتحاول أن ترسم ابتسامات فوق شفتيها الذابلتين ، وقد امتلأت عيناها بالعرفان.

تُقبل هالة علينا وقد نوت أن تغرق المكان بالمرح ، وقد توردت وجنتاها من كثرة الحركة ، وهى تصنع لنا شيئًا نأكله ، و تحكى لأمها

عن الأشياء الساخرة التى رأيناها بالشارع ، برغم العينين الجميلتين لهالة واستدارتهما القمرية اللتين تغطيهما رموش كثيفة يظلان منطفئتين ، حتى تزول الكآبة من وجه الأم المريضة .. عندها تلتمع عينا هالة ، ويبدو عليها مرح حقيقى ، لكنه قصير غير منظم ، فتصبح كالطفلة المنهكة من اللعب ولا تريد التوقف عنه ، حتى تذهب الأم إلى مخدعها ، فتعود هالة إلى حالتها الأولى . وأخرج من منزلها ، بعد أن ودعتنى برقة وحنان ، فيملؤنى الهم والأسى من أجلها يقول أبى : صديقتك محترمة وحساسة .. حافظى عليها وعلى صداقتكما ، ولا تغضبى منها .. فهى تبحث عن القوة ؛ لأنها وحيدة فى هذا العالم .

***

المرة الأخيرة التى رأيت فيها هالة كنت ذاهبة لأرى نتيجة الامتحان ، لكننى رسبت فى تلك السنة ، ونجحت هالة .

وكنت أبكى بمرارة ، وعندما رأتنى ألحت على أخذى إلى بيتها بشارع شوكلان ، وهى تلف خصرى بإحدى ذراعيها ونحن نطوف شوارع شبرا الصاخبة واليقظة دائمًا .

وكنا نسخر من كل شىء نمر به ونحن نلعق البوظا ، وعندما أنهكنا السير جلسنا فوق الرصيف المؤدى لكنيسة سانت تريز .. نتكلم عن أحلامنا ونحن نأكل حبات التين الشوكى .

ولم يسرق بهجتنا سوى ذلك المشهد المروع والحزين لجنازة طفل مقبلة ناحيتنا ، فانفطر قلبانا ، برغم فخامة الموكب المخصص لتلك الفاجعة وعربته المذهبة والمزينة بالملائكة العراة المطليين بالذهب والفضة.ومع ضوء الشمس الساقط عليهما ، يهيأ إليك بأنهم قد سقطوا من السماء ، من أجل حمل هذا الجسد المسجى ، أما الخيول الموفورة الصحة ، والتى كانت تجر العربة ، توحى إليك بالقوة والسطوة : سطوة الموت ، وقسوة الحياة .

ابتعدنا أنا وهالة ، والعربة مقبلة نحونا تعبر إلى الكنيسة ، والكل يفسح لها الطريق ، وقد فاضت عيونهم بالدموع .

لم نشعر بأنفسنا ، إلا ونحن نفر نعبر الشارع ، وقد تشابكت أيدينا بقوة. وعندما ذهبنا إلى منزل هالة ، ورأيت أمها الطيبة ، انتابتنى موجات عارمة من البكاء المبهم ، ولم أكف إلا بعد انتهاء هذه السيدة من قراءة بعض من الكتاب المقدس فوق رأسى ، وقد جلَستُ عند قدميها ، ولف الخدر جسدى ، وهى تمر بأناملها الذابلة فوق شعرى بحنان واهن ، جعلنى أغفو قليلاً ؛ فكانت تلك السيدة تحبني حقًا ، وتسعد عندما ترانى مع ابنتها هالة.

مرت دقائق معدودة ولاتزال الأصابع تربت فوق رأسى فى ثبات وخفة ، وبمجرد إدراكى لتوقف أصابعها انقبض قلبى ، وعرفت بأنها سوف ترحل عن الدنيا قريباً. وكانت هالة فى ذلك الوقت تجاهد فى تعليق صورة صغيرة لى قد سحبتها من صدرها .

وقالت : كدا متأدريش تسيبينى.

لفّنا صمت عميق وكل منا - أنا وهالة - ينظر إلى الآخر بعيون مليئة بالأسئلة والمخاوف ، لكنها مفعمة بحنان هادئ ، وتواصل عذب اقترب فى شفافيته من حالة الصوفيين والمقبلين على الموت.

وقد فرت دموع هالة ، وهى تعتذر لى بخجل ، وقامت لتقبلنى ، وأنا أسألها :

لماذا يا هالة.. لماذا تلك الدروس السرية ؟

أخذت من فوق الطاولة قلمًا ورسمت خال بجانب أنفها وهى تقول بفمٍ مرتعش ، تجاهد فى رسم بسمة :

- بصى بقينا زى بعض ، والنبى انسى .. انسى بئه

ودعتنى .. وبرغم برودة الهواء ظلت واقفة بالشرفة ، وأثناء سيرى وكلما ازدادت خطواتى أدرك ، بأن هذا اليوم هو آخر علاقتى بها ، ولأسباب مبهمة وقدرية كنت على يقين بأنى لن أراها أبداً ، كانت تلوح لى بيدها من بعيد ، وهى مهمومة بأحزان ومخاوف غامضة ، وكلما ألتفت لأنظر إليها ، أراها مازالت واقفة ترمقنى وقد نامت برأسها فوق سور الشرفة تحرك أصابعها بخدر فوق أحبال الغسيل وكأنها تعزف لحن حزين ، فأشحت إليها بيدى أن تدخل .. لكنها تجاهلت رغبتى حتى وصلتُ إلى آخر الشارع ، وقد رمت لى بقبلة من بعيد ، وكأنى داخل حلم وقد أوشكت غفوتى أن تنتهى وأنا أدلف بعيداً بعيداً عن شارعها ،

وتذكرت صديقتى جورجية اليونانية التى كانت تسكن بحارة من حوارى شبرا ، لكنها نظيفة ، وتبدو راقية. وجورجية هى التى كانت قادرة أن تخرج ما بصدرى من هموم ، وبمجرد دخولى بيتها تبدأ احتفالية ذات مذاق خاص تمتلئ بحيوية اليونانيين ، وطريقتهم الخاصة فى اللهو والمرح ، ولا تخلو من سحر الشرق الموغل فى القدم ، مغلفة بروح الفنان الحقيقى ، المفعمة بالتعاطف والنبل ، وعندما يصمتون تسكنهم روح تأملية كأهل الصحراء والزاهدين والشعراء.

وعند اللهو يقبلون عليه بروح شبقية مفتونة بالحياة ، وتسعدهم أشياء بسيطة كالرقص والغناء .. يقبلون عليه برغبة عارمة فى السعادة ، وكأن السماء تمطر ذهبًا فوق رؤوسهم.وبمجرد أن يمسك (نيقولا) – الأخ الأصغر – بالمندولين يبدأون التصفيق على الطريقة اليونانية ، ويكون الأخ الأكبر(أندريا) هو المرشح للغناء ، وقد جلس فوق المقعد وهم يرقصون حوله فى دائرة ، وتبدأ صيحاتهم بطيئة هادئة ، ثم تعلو رويداً رويداً ، ويداهمنا الوالد الذى يرتدى أفارول الميكانيكا ، ويضع فوق صدره دائماً حمالة المطبخ ، وقد انتهى من صنع أطباق السبانخ ، ولكنه أثناء ذلك كان يدخل علينا ، وهو يرقص ويصفق ، ثمَ يدلف إلى المطبخ ، ثم يأتى إلينا ليشاركنا اللهو من جديد.

وفى تلك المرة همست له جورجية فى أذنه ، وقال لى بمصرية مكسرة :

– مهلشى السنة دى.

ومال ناحية دولاب صغير ، وأحضر لنا زجاجة بيبسى ، لم أر حجمها فى حياتى .. قد احتفظ بها هذا العجوز من سنين بعد زيارة له لليونان ، وأمرنى أن أفتحها ، وهو يقول :

- دى عشان اليوم الجميل .

- أى يوم لازم يكون جميل .

- وفيه سقوط .. بعدين يكون فيه نجاح .

وعند نهاية الاحتفال وددت الرحيل ، فأمر أبناءه جميعًا لتوصيلى.

واستمر الغناء بشوارع شبرا وضواحيها ، وقد توسطناهم أنا وجورجية ، وهى تنشد معهم دون اعتراض منهم على ذلك ، بل على العكس عندما كانت تتلهى معى بالحديث ، كانوا يدفعونها إلى الأمام ، لتشاركهم الغناء.

وعندما سألت أندريه لماذا يحبون الغناء بهذا الشكل ؟

- قال : الغناء قوة.

وقد حاول إقناعى بالغناء وأنا أطوف معهم شوارع شبرا .. فأحاول ، لكننى لا أفلح عندما أتذكر دموع هالة المنهمرة ، وهى تجلس أمامى شاعرة بالذنب تجاهى ومخاوف مبهمة قد مست قلبينا ، وعند دخولى بيتنا سبقتنى جورجية لتعلن لأبى خبر رسوبى ، وهى تمازحه باليونانية فعرفت بأن أبى يعرف تلك اللغة أيضًا كباقى اللغات التى علّمها لنفسه ، وقال لى بعد أن انصرفت صديقتى :

- أنا كنت فاكر إن جورجية مسيحية .

- قلت : ليست مسلمة .

- قال : لا .. يهودية ، لكن والدتها مسيحية مصرية .

- قلت : هل توجد مشكلة يا أبى ؟

- قال : بالعكس دى بنت هايلة .. مثقفة جداً .

وأشار إلى الشعوب المتقدمة ، وقال :

إن تلك الأمم أسعد حالاً منا ؛ لأنهم مثلما يصنعون سعادتهم يعرفون أيضًا كيف يعملون .. إن كل الأشياء بالنسبة إليهم مقدسة ، ولابد من إتقان كل ما يفعلوه .. لذلك فهم منتجون وعباقرة وفنانون من الدرجة العالية .

- قلت لأبى : لماذا كلما زرتهم رأيتهم يطهون السبانخ ، لماذا يا أبى ؟

- قال وهو يفكر : لأنهم فقراء ، والسبانخ مليئة بالحديد والفيتامينات ، وهم يعلمون ذلك ، وبرغم فقرهم فهم مثقفون وعصاميون يستطيعون أن يحيوا بأبسط الإمكانيات دون خلل ، لذلك هم سعداء ، حتى السعادة لا تتطلب منهم إمكانيات ضخمة خارجة عنهم ، لكنهم يبتكرونها بأشياء بسيطة .. هؤلاء قوم يعرفون كيف يستغنون .

- قلت لأبى : أريد أن أسافر إلى اليونان .

- قال : إذا نجحت السنة القادمة سأفكر فى الموضوع.

عندها تذكرت بأنى رسبت ، شعرت بالخجل وأنا أجلس أمامه ، وهو الذى لم يكفل مثلى برعاية منذ صغره ، برغم ذلك علّم نفسه أشياء كثيرة حتى اليونانية التى رأيته اليوم ينطقها بطلاقة .

سرحت مع تلك المهارات التى يعرفها أبى فخجلت من نفسى ، وسمعت صوت أمى ففررت إلى فراشى ، خوفًا منها ، وهى تمرق متعمدة بجانب مخدعى وأنا مخبئة رأسى تحت الفراش .. أتظاهر بالنوم ، وأحسدها على حريتها فى التجوال دون خجل مثلى.

* * *

بدأ جسدى يرتاح عندما تسربت إلى أذنى نغمات هادئة قد وضعها أبى بجهاز الأسطوانات وروائح عطرة آتية من مطبخنا ، وأبى يصفر مع أنغام البيك أب ، وهو يطهو لنا عشاء يوم الأحد ، ويكون غالبًا وجبة جديدة يفاجئنا بها ، قد تعلمها خلال تجواله عبر السفر ، أو من أحد المطاعم الغربية الخاصة التى كان يفضلها ، وكانت غالبًا لبلاد أصحابها ذوات قلوب دافئة كإسبانيا واليونان وإيطاليا ولبنان والهند ، هذا بجانب الأطعمة التى كانت من إبداعة الخاص ، وتتميز بروائحها النفاذة القادرة على فتح أى شهية ، حيث اهتمام أبى المبالغ فيه بالتوابل .

يقول : أى طعام ممكن أن يؤكل بشراهة لو فهمنا ما نوع التوابل التى تناسبه.

* * *

عندما يحن أبى إلى صوت عبدالوهاب لا يستطيع شىء أن يوقفه ، فيفر وهو يتهادى بحرص كى لا توقظنا وطأة خفّيه فوق الأرض الخشبية.

وبعد أن يمسح الأسطوانة بقطنة منقوعة فى السبرتو ، ثم يشدو عبدالوهاب بدرّة أبى المفضلة [عندما يأتى المساء] ، تأخذنى نغمات تلك القصيدة إلى سعادات لا توصف ، برغم شدة الوحشة التى تغوص بداخلها نفوسنا فور بدء تلك الدرة ، لكننا نأنس سريعًا لصوت دندنة أبى ، وهو يشدو مع ذلك المقطع .

اســـــألوا الـليـل عن نجــــمـــيــــا

مـــــتى نجــــمــــيــا يـظـهــر

كـلـمــا وجــــــهـت عــــيـنـى

نـحـــو لمـــاح المحـــــــــيــــا

لـم أجــد فــى الأفـــق نجــــمًـــا

واحــــــــــداً يــرنــو إلـيـــا

ويرق قلبى من أجل أبى ، فأحاول التلهى بأشياء أخرى ، وأتذكر جورجية وإصرارها على مواراة أنوثتها ، وارتدائها لملابس الرجال ، بالإضافة إلى نظارتها الطبية السميكة ، فأضحك من قلبى عندما أتذكرها وهى تضرب الشباب الذين يسيرون وراءنا على أرصفة شوارع شبرا لمغازلتنا ، وقد فرقتهم جورجية بقفزات الجودو والكراتية ، فيفرون إلى بيوتهم ، وقد غلفت وجوههم الدهشة والفزع .

وأتذكر هالة فيمس قلبي حزن ، فأتلهى عن ذلك الأسى بهذا المشهد الذي داهمني منذ شهور. وقد قمت بزيارتها ، فأطلّت عليّ بوجهها الصبوح وهي توارى جسدها الشبه عاري ، وقد ارتدت سروالاً يبدو لأخيها هاني ، ولفت نصف جسدها الأعلى بمحرم في لون وجنتيها ، ثم أمسكت يدي وهي تسحبني إلي غرفة نومها ، وقد نحت المحرم من أعلى وبقى السروال والمشد ، وقد نفر النهدان بلونهما الوردي ، وكانت قطرات من العرق تبللهما ، فبانا كزهرتين يانعتين بللهما ندى الصباح .

وبعد دقائق ، داهمني أخوها هاني ، وهو يمسك بإحدى يديه [بالحلاوة] التي تستعمل لنزع شعر النساء ، وأخذ يكمل عمله الذي بدأه وكأنني أوقفته بزيارتي المداهمة ، وجلست على طرف من الفراش أشاهد هاني ، وهو ينزع الشعرات الناعمة بظهر هالة وهي تضحك لي بخجل ، سحبتني غفوة وأنا أبتسم لتلك المشاهد.

جاءت أمي لتوقظني للعشاء ، فادّعيت الاستغراق في النوم حتى يأتي أبي ويهمس لي من وراء أمي ، ويحاول إرضائي كما لو كان هو المذنب ، وأسمع أمي من بعيد ، وهي تزجره ، وتتهمه بأنه يفسدنا بتدليله وحنانه المفرط ، وأقول في نفسي: لو تسكت تلك المرأة!

ولا أقوم من فراشي ، إلا وقد ذهبت أمي إلى مخدعها في نهاية البيت الكبير .. عندها أتسلل .. أتمسح بأبي الذي يقرأ في هذا الوقت

أو يتسلى بإحاكة طاقية من الكوروشيه ، ويمسك بأناملى ليهم بتعليمى وهو يضع الإبرة الرفيعة بين أصابعى ، وأسأله بدهشة :

– متى تعلمت كل هذا ؟!

– عندما كنت صغيراً وبالذات عند الغضب .. كنت أهرب إلى جسر قريتنا جالسًا فوق حجر قرب النهر ، وأعلّم نفسى الغزل أو العزف على الناى الذى صنعته من غاب النهر ، وبرغم ذلك كانت تلك الأشياء لا تحررنى من غضبى ، لكنها كانت تهذبه ، وأثناء الغزل أو العزف أفكر : لماذا أنا غاضب ؟ .. ولماذا فعل الإنسان الذى أغضبنى هذا ؟ وهل هو على حق أم لا ؟ ولا أنتهى من استغراقى فى الغزل أو العزف على الناى ، حتى يتملكنى هدوء عميق ، وتملؤنى بصيرة مستنيرة علمتنى كيف يكون الغفران.

يسحب أبى من غليونه نفسًا عميقًا كأنه شاعر رومانسى ، ويقبلنى من رأسى ، ثم يرجونى قبل ذهابى إلى مخدعى أن أعتذر لأمى ، وأعدها بالاجتهاد السنة القادمة.

وأرمقه من بعيد وأنا أقف أمام باب غرفتى ، فأراه وهو يكمل الغزل ، ويصفر مع أنغام الأوكرديون ، وأقول وقد ملأنى الأسى : هذا الطفل اليتيم علّم نفسه أشياء كثيرة ، رغم قسوة أمه وزواجها السريع بعد رحيل زوجها .. ، تمنيت لو كنت قريبة منه فى ذلك العهد ، أو أختًا له حتى أخفف عنه .

وغفوت وأنا أحلم بأننى ألعب معه تحت شجرة التوت ، ومرة أخرى رأيته يبكى بصمت وأنا أمسح بيدى الصغيرة فوق رأسه ، لأخفف عنه عبء تلك الأيام الحزينة.

الفصــل الثــالث
جـــدتى زينـــب

كانت الروائح النفاذة المفعمة بالخير والموغلة فى القدم تملأ جلبابها الأسود .. لذلك عندما أذكرها .. تباغت نفسى قبل الذكرى تلك الرائحة التى تنفلت منها كل الذكريات المفرحة والحزينة. وكلما كانت الرائحة التى تداهمنى نفاذة أصبحت وطأه الذكرى أصدق فى الرؤيا والإنصاف ، لكن تلك العجوز الجبارة لا تخلو ذكرياتى معها من الرصد العادل ، وأعجب من نفسى بعد أن عرتنى الحقيقة ، وعرفت بأننى لم أحب تلك السيدة أبداً .. وبرغم ذلك لا تخلو نفسى من الإعجاب والانبهار بها ، ولا أنسى حضورها القوى والمتوهج على روحى ووجدانى ، ورائحة جلبابها الأسود المعبأ بروائح الخبيز والفطير الفلاحى والدقيق الطازج والزيت والسكر والغلة التى كانت تبيعها بالجملة فى حانوتها.

أما قبلاتها لنا عندما تقبل علينا فكانت كاذبة على الطريقة [الفلاحى] كثيرة وسريعة ومقتضبة وممتلئة باللعاب ، ذات صوت خشن ، يزعم باحتفالية تعبر جدتى بها عن ذهوها بنا أمام فلاحى القرية .. لكنها لا تضمر مشاعر حقيقية ، وكأننا سرقنا أبى منها ، وبرغم ذلك كنت أفرح بسفرنا إليها ، وخاصة وأنا أعرف أن بحانوتها أصابع الملبن الوردية الصغيرة ، والتى ترقد باسترخاء بين ثنايا السكر المطحون.

وكنت عندما أشعر بالحقد ناحية جدتى وأرى عطف أبى عليها وتدليله لها رغم قسوتها وإهمالها له وهو صغير تملؤنى الكراهية ، وأنفلت إلى حانوتها لأسرق تلك الأصابع الشهية ثم أجلس أمامها وفى عينى انتصار يخفف من مرارة الألم فى نفسى عندما أذكر مافعلته تلك المرأة من عذابات مازالت واضحة فى عينى أبى ، وبرغم ذلك كان يفرح بقربها ، وخاصة عندما يضع ذلك العقد الذهبى (الحمصة) برقبتها فى كل زيارة لنا إلى بلدتها الصغيرة بعد أن تدعى فى كل مرة بأنه سُرق منها أو باعته لتشترى دواء للاتجار به أو أى خدع أخرى ، وبرغم معرفة أبى لأكاذيبها ، لكنه كان يفرح بها وهى مذهوة كل مرة بذلك العقد وسحر الذهب فوق صدرها يجعلها تختال بين مجالس الرجال ، الذين دعتهم لزيارة أبى خلسة حتى يضغطوا عليه ببيع قطعة من أرضه أو يهب خدماته لبعض الفلاحين الذين تربط بينهم وبينها مصالح. وكان أبى يفعل ذلك بقلب كبير ، مؤمناً بأنه يساعد فقراء ، ولم يعلم بأنها تخدعه تلك المرة أيضاً .لم يحزن أبى من أجل تلك الأكاذيب الصغيرة ، لكن حزنه العظيم يتفجر عندما تحاول جدتى انتزاع شىء منه يحبه ويفرح قلبه مثل جنينة الموالح التى كان يعشقها ، ولا أنسى وجهه أبداً وهو يبكى أمام جدتى بعد أن قطعت شجر الليمون وباعته لتاجر بسعر كبير ، ومن وطأة البكاء جاءت كلماته مخنوقة من داخل روحه المنسحقة فى تلك اللحظات ، ومازال صوته يخترق أذنى حتى الآن :

– ليه ياما ؟! ليه كده ياما بتعملى معايا ليه كده طول حياتك؟!

عرفت تلك المرأة الجاحدة وما فطرت عليه من هوس المقايضة كباقى الفلاحين .. تعرف تماماً ما هى البضاعة الجيدة وماتساويه من مقابل ، لذلك كانت تأخذ أمام حب أبى لها ذهبًا وفضة وأراضى وعقارات وشجراً كشجر الليمون.

ويحكى لنا أبى ذكرياته مع ذلك الشجر عندما كان يحبو ، وكانت ثماره تبهره ، فعلمته الركض والتسلق ليلتقطها .. وكم كانت تلك الأشجار مخبأه السرى عند لهوه مع الصبية فيتوارى بين أحراشها وتأخذه حباتها النضرة الفواحة ، فيقطف منها للأولاد مزهواً وفخوراً بتلك الأشجار التى تأتى بليمون لا يضاهيه آخر فى حجمه ولونه داخل تلك القرية. وبرغم ذلك كانت جدتى لا تهتم لتلك الأمور ، بل كان همها الأكبر التفاخر أمامنا بموائدها العامرة بشتى أنواع الطعام ، فعندما نجلس بصحن دارها لنأكل فوق الطبلية الكبيرة .. كانت كل زيارة تقول ونحن نمضغ طعامنا بنهم :

- هنا تحتكم .. دفنت أبنائى الموتى.

وعندما نرمقها بنظرات فزعة .. يقطعها أبى بسخرية لاذعة محاولاً إضحاكنا وانتزاع الخوف من قلوبنا ، فيقول :

- اوعى تدفنينى هنا ياما .. لاحسن عفريتى يطلعلك.

وتتظاهر جدتى بالبكاء ، وهى تقول :

- بعد الشر عليك يا ضنايا .

وكنت أسأل نفسى كثيراً :

- لماذا جدتى أضافت إلى دارها مقبرة رغم قرب مقابر القرية لدارها ؟

وعندما سألت جدتى كانت تنظر إلى أبى لينتبه إلى جوابها .

- قالت : علشان ولادى يبقوا جانبى .. الضنى غالى يا أحمد .

هكذا كانت جدتى .. لذلك ترك لها أبى كل شىء ورحل عنها وهو صغير ، وأخذ معه أمى وأخواتها بعد أن عذبه طويلاً سطوة قسوتها عليهم فقرر الفرار بهم ورحمتهم من عبوديتها ومعاملتهم كالخدم .

وهنا بالقاهرة استطاع حمايتهم ، لكن شرها ظل يطاردهم سنوات طويلة ؛ فعند ذهابهم معنا إلى الريف .. لا أنسى تلك النظرات الحيرى من عينى أبى ، أمه تقوم بتوزيع الطيور المطهية علينا ، ثم ترمى لهم بشحمها وجلدها . أما عندما تأتى هى إلينا بالقاهرة تتعازم هى وأمى على من يوزع علينا لحم الوليمة ، وعندما تفوز أمى بالتوزيع ، يهنأ الأخوان باللحم الأحمر الوفير ، أما عندما توزع هى بعد أن ادعت التعفف .. فلا ينوبهم غير الشحم والجلد برغم إغراق جدتى بكرمها المفتعل لشارعنا . فقد كانت كلما أتت إلينا تحمل معها قففاً وأجولة تفرغ من أجلها غرفة بكاملها ، وكان يكتب على كل واحدة برماد الفرن اسم كل عائلة لجيران شارعنا . وكانت جدتى بعد أن ترتاح من إنهاك السفر تحظى بالضيوف الذين يأتون من كل صوب يتسابقون فى مدحها وإرضائها .. وأذكر أن بعضاً منهم كان يغالى فيقبل يدها فتشدها بافتعال متظاهرة بالحرمانية ، ويمتلئ البيت بحديثها الذى لا يمل منه

الحاضرون ، بل ينصتون إليها مبهوري الأنفاس لكل ما تقوله من حكايات ، حتى الأمور السياسية تتحدث عنها بطلاقة ، وكانت تتحدث عن عبدالناصر بجرأة ، ويتطرق الحديث إلى جولدمائير وموشي ديان ، ولا ينتهي الحديث حتى تمل هي ثم تدعى التعب ، فينصرفون يملؤهم شعور بالخجل ، متوهمين بأنهم قد أثقلوا عليها وأرهقوها ، وهى التى تجود بكرمها معهم دائمًا.

* * *

كان أبى ينظر إلى الأخوين بانكسار فى حضرة أمه وكلما شدها الحديث معه فى أثناء طعامنا ، ملأ أبى أطباق الأخوين باللحم خلسة وهو يتابع أمه بعينين مفعمتين بالأسئلة والسخرية ، فأراها وهى لا تخجل أبدًا من ممارسة قسوتها بنفس شرهة متغطرسة تجعلها أشبه بالديك الرومى الذى تفسخه أمامنا وهى تناقش أبى فى مشروع تجارى جديد أو تتحدث بالسياسة ونحن مندهشون لتمكنها فى الحديث ومستفزون من رغبتها العارمة فى فرض آرائها على أبى ، الذى يقضى ليله بالاطلاع على كل جديد ، فنحاول إغاظتها ، ونتهامس ونتآمر ، ونفتعل نوبات من الضحك حتى نبدو لها بأننا نسخر منها .. فتنظر إلينا من تحت نظارتها الطبية ، وتتبدل نظراتها القاسية إلى ارتجافات قلقة مفعمة بدموع الغيظ . أما الأخوان فلا يشاركاننا الضحك ، لكنهما يكتمانه ويبتلعانه أثناء طعامهما فى صمت ، وقد ملأ أبى أطباقهما من

اللحم الأحمر وهو يتظاهر بالحديث مع أمه التى تدعى الكرم ، فترمى إلى الأخوين هى الأخرى باللحم ، وقد بدلت ما بعينيها لرياء وعطف ، ليس ذلك العطف الذى يأتى من الرغبة فى مد الأيدى إلى المحتاجين ، لكنه ذلك العطف الذى يكمن بداخله خوف وقلق بقلوب الذين يدعونه وهم يمارسونه بآلية تدفعها دائمًا رغبتهم فى كسب حب واحترام الذين حولهم ، ودائمًا يأتى مفعمًا بخوف قد انبثق من رغبتهم فى التقرب إلى الآخر والفزع من فقدانه ..عندها ينسحب أبى من المائدة ، ولم يعطِ لجدتى فرصة لمشاهدته كرمها الزائف من أجله، لكنه يسترخى فوق مقعده شاردًا ، ودخان غليونه يحجبنا عنه وهو يستعيد ذكرياته الحزينة.

كنت لا أعرف لماذا تكره جدتى الأخوين ، حتى كبرت وعرفت بأنهما ليسا أخوين لى بل أخوان لأمى وابنتان لزوج جدتى زينب ، وهذا الزوج هو والد أمى ، لذلك كانت تملؤها رغبة ملاحقتهما فى القاهرة أينما ذهبا ، ولاتهدأ أبدًا كلما رأت أبى يحنو عليهما أو ينصفهما .. عندها تدعى البكاء من أى شىء تافة أو تدعى المرض معبِّرة عنه باللهاث أو بإغماءة ، ولا تفلح أن تدارى عينيها الماكرتين من تحت نظارتها الطبية ، أما نصيب أمى من محاولة امتلاك جدتى لأبى وحقد تلك المرأة على الأخوين .. كانت تستقبله برصانة وحكمة كمن يشعل فتيلاً بتروٍ ، وأما نيرانه فكانت أمى تطفئها بدهاء أنثى ، ثم تحولها إلى عطف ورقة مفرطة يلف سحرها كل البيت ، حتى تتحول قسوة جدتى ولدغاتها وأنانيتها المفرطة فى عينى

أبى وأعيننا إلى نوع خاص من المزاح ، ويمتلئ بيتنا بقهقهات مرتفعة تصم لها آذان جدتى بعد أن تحولت إلى نيران تعبث بقلبها اليابس وهى ترمق أبى وهو يهم بالذهاب إلى مخدع أمى. عندها يرق قلبى لأمى ، وأتخيلها طفلة صغيرة واقعة هى الأخرى تحت سطوة تلك المرأة ، وأبى لا يملك أن يفعل شيئًا من أجلها ، سوى سرقة الفطير واللحم من مندرة جدتى حتى بلغ العاشرة ، وذهب إلى القاهرة وحيدًا ، شاردًا ، كى يبحث عن رزقه من أجل إنقاذها هى وأخواتها. وعندما بلغ الخامسة عشر تزوج من أمى ورحلا هما والأخوان إلى القاهرة تاركين جدتى وتلك السنين الحزينة .

وأنام ملء قلبى امتنانًا لأبى وعطفًا مفرطًا تجاه أمى وأخويها اللذين لا يستطيعان أبدًا التعبير عن مشاعرهما بالكراهية المخبأة فى قلبيهما من سنين طويلة يواريناها بأعماقهما إكرامًا لما فعله أبى معهما بضميره الحى وقلبه النبيل .

***

عندما ينام أهل البيت تظل الجدة قابعة تزمجر بصوت نصف مسموع ، وبين الحين والآخر تنادى على واحدة من الفتيات الصغيرات اللاتى يأويهن أبى ويقوم برعايتهن ، ولم تنصف الجدة واحدة وهى تنادى ، ويتظاهرن بالنوم ، وتصيح الجدة من حين إلى آخر فلا يختل لواحدة جفن. فلم تدرك الجدة بأنهن مدللات منا جميعًا وبعد ما تثيره

أثناء مكوثها من مشاكل وصخب وبكاء ومرح تذهب فى ضجة مثل مكوثها تمامًا ، لكنها تحمل عند رحيلها كل طلباتها المرهقة ، وهى لبعض الفلاحين ، من ذهب وفضة وقماش وأعشاب وحناء للشعر وخبز أفرنجى وهريسة ودواء ، وكان بعض من هذا الدواء عندما نسأل أبى عنه يضحك ضحكات مفعمة بالخجل حتى تدمع عيناه ، لكنه بعد ذهاب جدتى يجلس وحيداً هادئًا صامتًا يملؤه الوجوم ، وكأنها عند رحيلها لم تسحب نقوده فقط بل سحبت كل شرايينه أيضاً .

هكذا كان أبى يحب حتى آخر نقطة فى دمه .

الفصل الرابع

زواج مدبـّـر

مـرت شـهـور وأبى يزداد قلقًـا من حى شـبـرا ، وخـاصـة عندمـا يداهمنا خطيب ، وبرغم أن هؤلاء الرجال يعرفون جيداً بأنهم مرفوضون قـبل أن يأتوا ، لكنهم يصـرون على المحـاولة ، ولـم ييـأسـوا أبداً ، مع علمـهم بما سـمـعـوه عنى وعن أخـواتى بأننا لسنا للزواج ، وخاصـة من حينًا شبرا كما كان أبى يردد :

تزوجن كما تبغين .. عدا الجيران والأقارب.

لكنه كان يوارى شيئًا بـهذا فى الحقيقة هو الخوف تجاه من يقترب منا أو يبدى إعجابًا .

- هل عانى كثيراً إلى هذا الحد؟ حتى يخاف علينا من الخروج من تلك المملكة التى صـاغـهـا بمنطقه الخـاص ورغـبـتـه المفـرطة لإسعادنا ؟

- ألهذا الحد لا يثق فى الحياة ؟ وهو الذى يحاول أن يهذبها من أجلنا قبل أن تـغـتـالنـا بقبـحـها وغدرهـا . وهل كان على صواب حين عزلنا عن شرورهـا ؟

فعند اقترابنا من تلك الشرور يبررها ويصغرها أمامنا حتىٰ لا تبقى في ذاكرتنا غير مبرراتها ودوافعها .

هل كان يقصد أن يعلمنا الغفران ؟ وإلى أى مدى ؟ .

وأسأل نفسي كثيراً : هل غفر أبي لجدتي ذنبها ؟

وهو الذى يصر على الغفران مع هذا العالم بشرط أن نظل بداخل هذه المملكة ، وكأننا التعويض الوحيد له ، والذى لا يقبل غيره في هذا العالم بديلا عن يتمه وحرمانه ، وكأنه يعيد صياغة تاريخه بنا ، ويثرى هذا التاريخ بتلك الشرنقة التي تلف بيتنا ، وحتى لا يتشابه البيت بما فيه ببيوت كثيرة .. جاهد سنين طويلة بالتفرد في كل ركن من أركانه ؛ فمن ناحية المنهج فكان الضمير والخير ، أما من ناحية الشكل فتاريخ أبي الذى يحاول دائماً نسيانه يبدله بتاريخ العصور التي ولت وما تركته من عظمة وثراء خلقها أحد الفنانين العظماء بداخل لوحة تنفست ألوانها عبق الزمن القديم ، أو يقتني أبي إحدى القطع الخشبية الموغلة في القدم ، والتي حملت معها عبقًا لأزمنة قد طواها الثرى .. قد أحياها أبي وروضها وكأننا جميعًا من نسيج واحد وعالم واحد مليء بالأسرار ، والتي اختلطت بأنفاسنا ، وكأن تلك السنين بداخل بيتنا هي الإرث الوحيد الذى يستحق أن نعيش من أجله حتى آخر رمق .

***

كان شباب العائلة يترددون على بيتنا محاولين التقرب من أبى ، وكانت أختى الكبرى زينب هى مأربهم ، وعندما كان يتردد واحد منهم على بيتنا يمتلئ قلب أبينا بالقلق فنزيد من تدليله وإرضائه ، وتنفرد زينب بدور البهلوان ، ولا تهدأ إلا وقد زالت الكآبة من قلبه ، وقد بدأ يتحدث إلى الزائر بقلب مفتوح ، خاصة إن كان الضيف يتيم الأب مثله. وقد برع أبى فى ذلك ، واستطاع أن يكتسب أصدقاء من هؤلاء الشباب من الأقارب والجيران ، وأصبح هؤلاء الخُطَّاب مكتفين بود أبى وعطفه المفرط عليهم .

وكان كمال ابن خالتى يتردد علينا كثيراً ، وأبى لا يرتاح إليه أبداً برغم حب كمال الشديد لبيتنا ، لكن كمال لم يستطع أن يوارى حبه لزينب ، بل ذكرها فى كل أشعاره ؛ فكان يتمتع بموهبة كبيرة رغم عمله بالطيران . لذلك استطاع أن ينال بعض اهتمام زينب وأمى أيضاً ، التى كانت تعد له الأطباق التى يفضلها ؛ مما زاد من مخاوف أبى تجاه كمال ، حتى جاء اليوم الذى تجرأ فيه ابن خالتى وطلب يد زينب ، ولا أنسى أبداً مدى الكآبة فى وجه أبى رغم تكرار هذا الموقف كثيراً مع خُطَّاب آخرين ، لكن سر كآبته تلك المرة هو علمه برغبة زينب الملحة لهذا الخطيب رغم صمتها .

وتمت الخطبة رغم معارضة أبى .. لأن دموع زينب لا يستطيع أن يتحملها ، وعاش شهوراً من الكآبة والصمت حتى جاءت زينب ، وقالت له بأنها قد فسخت خطبتها من كمال لأنها اكتشفت بأنها لم تهوه أبداً .

حاول والدى أن يوارى بهجته بالخبر ، فطلب من زينب أن تضع إسطوانة بجهاز الجرامافون ، وكانت أمى فى ذلك الوقت منشغلة بحزنها على ماحدث ، وقالت وهى تنصرف إلى حجرتها :

خليهم جانبك لغاية مايعجزوا .

وانقطعت خالتى وابنها عن بيتنا شهوراً طويلة ، حتى جاءت الحرب وانشغل الناس بخطابات عبدالناصر والحديث عنها ، وامتلأ شارع شبرا باللافتات مطالبة بالقضاء على الصهيونية ، واسترداد فلسطين ، وكلمة الثأر والدم تتكرر فوق كل الحوائط والأشجار. وتذكرت على الفور صديقتى جورجية ، وانقبض قلبى ، وخفت من الذى سوف تصنعه الحكومات بنا ، وأى تاريخ نحن مقبلون عليه دون إرادة منا ودون شهادتنا الحقيقية ، وأيقنت برغم صغر سنى بأن الحكومات هى التى توجه التاريخ كما تشاء ، وكما تريد المصالح بين الدول تزييف الحقائق .

***

كان البيت يمتلئ بالسكينة ، وكل منا يسترخى فى مخدعه .. لا يشغلنا سوى القراءة وسماع بعض الموسيقى ، وكانت أمى كعادتها أثناء القيلولة توارى الأبواب والشبابيك حتى يدخل إلينا بصيص صغيرمن ضوء الشمس يبعث على السكينة ويبهج النفس فى آنٍ واحد أثناء سباتنا ونحن غافلون.

أيقظنا ضجيج الشارع ودقات مدوية من عدة أيادٍ. وعندما فتحت أمي الباب كان مجموعة من الرجال ممسكين بشاب يرتدى زى الصاعقة وقد أنهكه الإعياء ، وكان وجهه يشع بضوء أحمر من شدة الحمى يهلوس بكلمات تبين منها بأنه كمال ابن خالتي ، وقد جاء إلينا هارباً من الأسر سيراً على الأقدام ، وعندما وصل القاهرة وركب القطار التفّ الناس حوله وهم يشبعوه لطماً وسبًا ظنًا منهم بأنه صهيونياً .. فقد كان ابن خالتي يشبه الغربيين ببشرته الشقراء وعينيه الزرقاوين وشعره الذهبى الناعم الكثيف ، ولم يكن لهذا السبب فقط اشتبهوا به ، ولكنها شدة الحمى التى جعلته يتلعثم فى الكلام ؛ فظنوا أنه يتحدث العبرية ويحاول أن يواريها ، ولم تكف أيدى وأرجل من بالقطار عن لكمه أو محاولة تهشيم عظامه ، حتى هم طبيب بالقطار لإنقاذه بعد أن عرف بأنه مصاب بالحمى ، وأنه مصرى هارب من الأسر ، وقد تطوع هذا الطبيب بتوصيله إلينا ، وكان جسد ابن خالتي ينتفض كقلب طفل جاهد الرعب فى أن ينتزع قلبه .

- هل جاء كمال إلينا ليبحث عن الأمان ؟ ولماذا لم يذهب إلى بيته وهو على تلك الحال ؟ هل فكر كمال وهو محموم أن يلجأ إلى صدر أمه الدافئ ولمة أخواته ؟ أتكون الحمى كالخمر تنزع الزائف من النفوس ثم تغرقها فى الأغوار حتى تطفو الحقائق ؟

- أيكون العقل مراوغًا إلى هذا الحد ؟

وعرفت فى هذا اليوم بأن كمال يحب أبى أكثر من حبه لزينب ،

وكانت شقيقتى هى حلقة الوصل بين كمال وأبى .. وهذا الحب الصامت له هو الذى دفع بكمال وهو مغيب عن العالم إلى بيتنا .

وفى الليل جلس أبى بجانب كمال وهو يبكى ، وكان كمال فى تلك اللحظة راقداً ينظر إلى سقف الحجرة وقد جمدت عيناه كالموتى ، وكانت هدهدة أبى له لا يختلج لها جفن ، اللهم إلا بعض انتفاضات الجسد وارتعاشات خفيفة بالوجه ، وكان يضمه بين الحين والآخر ويبكى .. وفى الصباح أودعه بالمستشفى للعلاج .

وبعد شهور شفى ابن خالتى تمامًا. لكنه ترك الشعر إلى الأبد ، واكتست ملامحه ببشائر الصوفية التى دعمها زهده واهتمامه بالمقدسات والقرآن الكريم خاصة ، وقويت صلته الروحية بأبى وقد زهد تمامًا لرغبته فى زينب .

رق قلبى لابن خالتى وما باء إليه حبه من سراب قد دعمه أبى بالإحسان إليه. وكانت زينب كلما تقدم إليها خطيب باءت محاولاته بالفشل ، وفى كل مرة يجد أبى سببًا منطقيًا لتشويه الخطيب أمام زينب ، وبعد أن ينجح فى ذلك يغرق زينب بالتدليل والحنان المفرط فيمتلئ قلبى بالخوف من نفس المصير.

***

كلما تقدم أبى فى السن يكثر من قراءة الأوراد بعد صلاة الفجر ، وعندما يقرأها رغبة فى شىء يبدأ من أول الليل بتلاوة ورد سيدنا على

الذى بفضل قراءته توقف مشروع السفر لأختى الوسطى إلى أوروبا بعد عراكها الطويل مع والدى أيامًا كثيرة دون جدوى للعدول عن السفر ، وعندما يئس أمام رغبتها الملحة فى السفر .. أفرط فى قراءة هذا الورد ليلة السفر ، حتى غفا كل من فى البيت ، وظل وحده يتلو بهمهمة غير مسموعة حتى شروق الشمس.

وفى اليوم التالى عرفنا من صديقة لشقيقتى بأنها دخلت المستشفى لإجراء عملية الزائدة الدودية ، وبذلك لم يتحقق حلم الشقيقة للسفر.

وكان أبى يستخدم هذا الورد فى أشياء مهمة تعكر صفو حياته ؛ ففى أحد الأيام رأيته منشغلاً بورده يختلى به فى خلوته الخاصة ، وعرفت من أمى بأن أحد عمال أبى سرق من حانوته بضاعة تقدر بآلاف الجنيهات ، وعندما تدخلت الشرطة لم تستطع أن تحصل على اعتراف من اللص السارق ، وبعد قراءة أبى للورد ذهب السارق إليه. وفى حضور الشرطة اعترف إبراهيم بكل شىء ، والغريب أنه أثناء اعترافه كان هادئًا .. يضحك بين الحين والآخر ، وعندما زج به داخل السجن رق قلب أبى من أجل أم إبراهيم والدة اللص ، وجاء بها إلى البيت لتعيش معنا وتخدمنا ..

عندها صاحت أمى :

ربما تكون لصة كابنها .

– قال أبى : مش ممكن ربنا يعاقبنا على فعل الخير .

وبرغم ذلك كانت أم إبراهيم تهوى سرقة جواريه ، وكان يضحك لذلك يملء قلبه وهو يضرب كفًا على كف ، ولكنه لم يتراجع فى احترامه لأم إبراهيم ، وكأنها واحدة من أهل البيت .

***

لم تنجح أوراد أبى معى أنا الأخرى .. فأنا مثله تمامًا ، وقد حمل دمى أسراره المبهمة دون أن أدرى .. أو هو شىء آخر لم أعرفه بعد .. ربما الشفافية أو البصيرة .

لم تفارق أبى رغبته فى حجبنا عن عالم الرجال ، وأذكر أننا ونحن صغار وأطفال البناية التى نسكن بها يلعبون فوق سطحها لرحابته وهوائه العليل ، وذلك الدفء المنبعث من كل أركانه ، والذى يشعر معه الصغار بالحميمية التى يضفيها القرب ، فبيوتهم تحت هذه الأرض .. لذلك كانوا يشعرون بالأمان برغم لهوهم الذى لايخلو من العراك .. وكانت روحى تهفو إلى هذا المكان ؛ فألح على أمى أن أصعد إلى السطح لألعب مع البنات والأولاد من جيراننا ، لكن أمى غالبًا ما ترفض رغبتى تضامنًا مع أبى ، وعدم رغبتها فى الاختلاط بنساء بنايتنا ؛ فهى لا تحب المكوث معهن وهن يتشدقن بحبات لب البطيخ الذى جمعنه طوال موسم الصيف ، ليتسلين به فوق السطح وهن يثرثرن .. ولأنها أيضًا كانت

رائعة الجمال وتثير غيره النسوة من حولها أينما ذهبت ؛ فقد فضلت المكوث بالبيت وشرفته تحتسى قهوتها ، وكنت أموت غيظًا كلما سمعت صوت الصغار بالسطح وهم يهللون ، ويلعبون ، والطائرات الورقية للأولاد تملأ السماء كالطيور المسافرة ، فأموت من الغيرة ، وكم تمنيت كثيرًا أن أولد ولدًا لأنعم بتلك الطائرات .

– قررت أمى بعد أن لان قلبها أن تصنع معى دبورًا ورقيًا ، فقلت لها وأنا أبكى :

– لماذا الطائرة للولد والدبور للبنت ؟

ومع إلحاحى الدائم اشترت أمى ورقًا ملونًا وخيطًا ودوبارة وقفصًا خاليًا من الطيور ، لتأخذ أخشابه الرفيعة لصنع الطائرة .

وقالت لى :

– سوف نصنع طائرة ، لكنك لن تصعدى إلى السطح أبدًا وسوف نطيرها هنا من الشرفة .

مرت أيام كثيرة وقد فشلت كل محاولاتى لإطلاق الطائرة .. فقد كانت البيوت المجاورة تحد من حركة الهواء لانطلاقها ، ووعدتنى أمى بأنها سوف تصعد معى إلى السطح من أجل طائرتى الورقية ، ولا أنسى أبدًا بهجتى بألوانها المختلطة بماء الأرز ذى الرائحة القريبة من طفولتى منذ أول نفحات بكارتها عندما كانت أمى تسقينى ماء الأرز المخلوط بالحليب ليجلب نومى الهادئ .

بدأت طائرتى تشق الهواء فى طريقها للصعود إلى السماء الرحبة كغيرها من طائرات الأولاد ، وكنت أفلح فى طيرانها مرات .. ومرات كانت تسقط سريعًا كسقوط الطير المذبوح ، وفى كل مرة تشتبك بنفس "الشبّاك" ذى الأعمدة الحديدية والبعيد جداً عن شارعنا ، ويفصلنا عنه بيوت كثيرة. وحكيت لأبى عن هذا "الشباك" ، ولماذا تقع طائرتى أنا بالذات عنده هو خاصة ، وتشتبك بأعمدته ، وكان يصمت عند سؤالى ، ثم يضحك ، ويقول :

بس الدبور أحسن.

ومرت سنون على تلك الحادثة ، ولم يمر يومًا إلا وقد مددت بصرى وأنا بالشرفة لأتأمل الشباك البعيد ، ومع الأيام ازدادت رغبتى فى معرفة أصحابه واسم الشارع الموجود فيه ، حتى أصبح مع الأيام والسنين شاغلى الأول. وكنت أدقق النظر لأرى ما وراء قضبانه من بشر وهم يتحركون بالداخل يمارسون أشياءهم اليومية العادية .

وأصبح هذا "الشباك" بعالمه المسكون بالأسرار بالنسبة لى كصندوق الدنيا الذى أهوى المكوث فيه ، لكننى لا أستطيع أن ألمسه أو أرى مابداخله لبعدِ المسافة التى جعلت الشخوص بداخله كالعرائس الصغيرة ، ومع شدة رغبتى للدخول إلى هذا العالم أصبح ما أراه من خيالات تتحرك بداخله .. محببة إلى وقريبة من روحى.. وبرغم هذا الهوى لذلك الشباك ، لكننى كنت أشعر بالانقباض أحيانًا وأنا مستغرقة فى تأملاتى فيما وراء تلك الأعمدة الحديدية ، ولم يفارقنى أبداً خلال تلك

السنين ذلك الإحساس المبهم بأن شيئًا عظيماً سوف يربطني بأصحاب هذا البيت ، وكانت تلك الدلالات الروحية تملؤني بالحزن لغموضها وعمقها اللذين يسحباني إلى مستقبل مجهول أسقط بداخل أغواره رغمًا عني ، وكنت أهرب من هواجس روحي تلك بالتلهي أحيانًا بهذا الشباك والسخرية منه كالتظاهر بالشجاعة أمام وحش مجهول الاسم والهوية ، عديم الملامح .

***

مرت الأيام واشترى أبي منزلاً كبيراً بحي الحسين ، وقد تمهل قبل إعلانه لنا بأننا سوف نترك شبرا وننتقل إلى الحسين ؛ فقد شعر بعدم رغبتنا جميعًا في ترك شبرا حتى أمي لا تستطيع أن تواري حبها لها ولأهلها . وحاول أبي أن يخفف عنا لوعتنا لفراق الأصحاب والشوارع والبيوت ، وأخذ يؤهبنا على هذا الفراق بطرق متعددة ، فاستأجر عامل أستور لطلاء الموبيليا ، ومكث هذا الكهل العجوز يلمع القطع الخشبية ببيتنا شهراً كاملاً .. يأتي منذ الصباح حتى الغروب ، وأثناء الظهيرة ينصرف بحجج مختلفة كاذبة ثم يعاود قرب العصر ، وقد فاحت الخمر من فمه، فيدخل دون أن يحيينا إلى القطع الخشبية ليكمل طلاءها ، وهو يحدث نفسه بصوت أجش حتى يجهش بالبكاء على ابنته وزوجته اللتين تركاه وحيداً ورحلا عن الدنيا إثر حادثة مروعة ، فكانت أمي تبكي معه أحيانًا وتواسيه ثم تحضر له الأطباق التي يحبها ، وفجأة يفر للخمر

مرة أخرى رغم صوت أمي التي تنهره وهو ينزل الدرج ؛ فكان يشوح لها من بعيد أن تتركه في حاله . وسمعت أبي ذات مرة يقول له :

بتشرب سبرتو ياعم زكي .

وكان عم زكي الأستورجي منهمكًا في عمله وقد ارتعشت يداه وهو ممسك بالقطنة المنقوعة في السبرتو الأحمر يمسد بها الخشب القديم المجعد ، وأمي تعاتب أبي :

– كنت تعرف بأنه مدمن .. أليس كذلك ؟

نظر أبي إليها وهو يضحك :

– ياستي غلبان .. الله يكون في عونه .

قالت وهي غاضبة : سوف ينتهي عمله بعد سنة إن شاء الله.

وفارقنا عم زكي بعد شهر تقريبًا ، وقد خلف وراءه فراغًا كان يملؤه بالحكي لنا عن الخرافات والأساطير القديمة ، وأحيانًا كان يقوم بتوصيلنا إلى مدارسنا هو وكلبه الذي لا يفارقه أبدًا حتى أحببناه نحن كذلك من كثرة حبه وتدليله له. ورغم بكاء عم زكي وهو في ذروة السكر وصوت حشرجة دموعه التي تبعث على الكآبة .. أحببناه ، وشعرنا نحوه بالعطف لذلك عند رحيله كنا نبكي وهو يترنح فوق درجات السلم كقبطان مهزوم لسفينة قد أوشكت على الغرق .. يدمدم باسم امرأته التي ماتت وابنته ثم يهلوس بأسمائنا ، وقد جلس فجأة فوق درج بيتنا وهو ينهر

كلبه ، ثم يداهمه بقبلات عنيفة ، وهو يترنح من جديد نازلاً درجات السلم بخطًى وجلة مرتعشة ، وقد رفع رأسه إلينا من أسفل الدرج ليرانا آخر مرة وهو يرسم علامة الصليب فوق جبهته وصدره .

وفى اليوم التالى من رحيله رأت أمى بداخل أحد الخزانات زجاجات صغيرة مليئة بالخمر ؛ فقال أبى وهو يضحك ، وقد كان مازال جالسًا يصلى :

- ضعيهم بكيس واللى تقدرى تجودى به من طعام ..سوف نرسله إليه .

وعندما قابل أبى عم زكى عرف بأن تلك الزجاجات تركها العجوز لنا لتبعث البركة ؛ فبداخلها زيت مبارك اشتراه العجوز لنا خصيصاً من كنيسة العذراء .

وقبل أن ترحل أسرتى للحسين كان عم زكى يأتى إلينا مدعيًا بأن كلبه قد تاه منه ، وجاءنا ليبحث عنه ، ثم يمكث ليشرب قهوته حتى يأتى أبى فيجلسان يتحدثان بود ، أما فى غياب أبى عن البيت فلا يجلس عم زكى أبدًا ، ويذهب وقد ترقرقت عيناه بالدموع ، وكنت أشعر بالأسف والعطف المفرط تجاه العجوز، ماذا سيفعل هذا البائس بعد رحيلنا ، وقد تعلق بأبى إلى هذا الحد ؟!

ريّا الغجرية

تطل شـرفـتنـا على بيت واطئ ذى دور واحـد .. هو ذلك الربـع الشاسع الاتسـاع ، المقسم إلى غرف صـغيرة من الطين النيئ المغطى بجير ملون بأيدٍ غير مدربة ، تضغط على قشرته من الداخل نتوءات هرمة ظللت مكانها منذ تاريخ هذا البيت ، لكن حرارة الشمس ورياح الشتاء فعلت الكثير بها من مد وجزر حتى صارت ككتل لعجين لين ، البعض منه منتفخ بانبعاجات يابسة كخبز الصعيد ، البـعض الآخر مختفٍ بداخل الجدار بفعل السخونة. واستمرت تلك النتوءات كما هى سنين طويلة عدا مـا يجـود به أهل الربع بطلاء رخيص فى الأعـراس أوطلعـة الأعياد .. أمـا هياكل الغرف فظلت قائمـة بذاتها منذ سنين بقامتها القصيرة التى عندما يغطيها الغروب لا يظهر منها غير كتل مستطيلة تجعلها كجبانة مغلقة على موتاها ، ولا يفصل بين غرفـها المتعددة غير جدران رقيقة هشة والمهيأة للتلصص ، حتى كان أهل الربع لا يستطيعون الاحتفاظ بأسرارهم ؛ مما دفعهم عند ارتكابهم للخطايا أن يفعلوها بصمت وهمس وفحيح وخطوات خفيفة حذرة كالأشـباح المسافرة ، أمـا البعض الآخر منهم فيتباهـون بأشـيائهم السرية ، فيفعلوها فى ضجة وعلانية مفعمة بالفجور .. مختالين بشرعيتها .. كمضاجعة فى ليلة عرس أو طهور مشهر أمام الجميع أو مغازلة بعض الأزواج وهم خارج غرفهم معلنين للجميع التأهب للمضاجعة ..أما شيخ

هذه القبيلة – وهو قائد هذا الربع – يجلس دائمًا بصحن البيت فوق كنبة متداعية صنعت له قديماً للمكوث فوقها للحل والربط فى أمور هذا الربع الشاسع وسكانه ، وفض ما يقع بينهم من مشاحنات ، ولا يجرؤ أحد على مجادلته أو عدم طاعته ؛ فهو شيخ تلك القبيلة التى فر كل أفرادها إلى القاهرة بحثًا عن الرزق أو الهروب من أحكام أو إيواء الشيخ لأحد ذويه المعدمين. فكان هو الذى يتحكم فى سير كل الأمور حتى الزواج والطلاق والسفر والصلح والخصام. وكانوا جميعًا بعد غروب الشمس يلتفون حوله ، ولكنك لا تستطيع أن تراهم ؛ فالشمس الغاربة قد أخفت معالمهم ، عدا تلك الأضواء الشحيحة الصفراء التى تنبثق من غرفهم خلسة خلال نوافذها الصغيرة الحديدية الصدئة أو ضوء واهن يسقط بموازاة لباب فُتح بحذر التلصص ، وكان من الممكن أن تسمعهم إن كانوا يتشاجرون .. أما لو كان مزاج الشيخ عكراً فلا يستطيع أحداً منهم النطق حتى يتكلم هو ، وإن لمح الشيخ أحداً منهم يهمس أو بدا عليه الغضب يكفى تمامًا نظرة حادة من عينى الشيخ الثاقبتين وهو يهم ببرم شاربه وقد اتكأ على عصاه التى أحيانًا يستعملها فى الضرب إن احتاج الأمر .

أما ريّا إحدى نساء الربع ، تلك الزوجة المهجورة ، والذى اكتفى زوجها بإرسال النقود إليها من دولة أوروبية ، ولم يفكر أبدًا بإرسال خطاب واحد لها أو النزول إليها منذ سنين طويلة ، أصبحت ثائرة دائمًا سليطة اللسان ، وأحيانًا تسب بلغة قريبة إلى الفرنسية ، لكنها لا

تعرفها إلا من خلال شاشة التلفزيون ، وعندما تصل إلى ذروة غضبها ترجع إلى لغتها الأصلية الصعيدية ، وعندها تبكى بلوعة ، لكنها وهى ما زالت تسب ، لا يستطيع أى ساكن من الربع - حتى الشيخ - قهر سطوتها أو إرغامها على شىء دون رغبة منها ، وبمجرد أن تشعر أثناء حديثها مع الشيخ بأن الكلام لا يوافق هواها ، تراها قد تركت الجمع دون مبالاة للشيخ وعصاه ، بل تسب وتضرب كل من يعترض طريقها ، ويهوى كل من يحاول إيقافها ، وقد أسرعت بخطوات مداهمة بجسد فارع قوى كالنخلة العتيقة والشامخة رغماً عن الرياح ، وهى تلعن كل الرجال وحريمهم بألفاظ نابية لم أسمعها فى حياتى إلا من ريّا .

ريا مسيحية هى وأسرة واحدة بهذا الربع والباقى مسلمون ، وأتعجب لماذا تصر على خشونتها ؟ وهى التى تضع كل مساء البودرة وأحمر الشفاه والكحل البلدى وكأنها فى ليلة عرسها ، ولا تخلو أبداً خزانتها من العطور والزينة التى تحرص على شرائهما من حى الحسين ، وظلت على هذا الحال سنين طويلة ولم يأخذ الزمن من قواها شيئًا كثيراً ، لكن العينين ازدادت حدتهما التى أحاطتهما استدارة الكحل البلدى ، ويرغم ذلك توهجت العينان ببريق حاد كقطط الليل ، وخاصة عندما تداهم أحد للعراك وتخرج كل ما فى جسدها من براكين تجعلها تتحرك فى الربع كالمهرة الجامحة ، ولا يستطيع أحد أن يمسك بلجامها ، وأندهش كثيراً عندما أراها رؤوفة رقيقة مع نساء الربع والشارع ؛ فعراكها دائماً مع الرجال الذين يهابون قوة جسدها ولسانها السليط ،

والذى يجعل كل من حولها يفر إلى غرفته يتركونها وحيدة تتصاعد رغبتها أكثر فى العراك والسب ، ويحاول الشيخ إيقافها بصوته الخشن الجهورى .. يأمرها أن تكف ، لكنها تشيح له بيدها الضخمة ، والتى تلف معصمها ساعة زوجها ، وهى تصيح فى الشيخ ، ثم تجلس فوق مقعده يملؤها البكاء ، وفى الساعات الأخيرة من الليل ، ترى ريا كالمارد تجرى بين الغرف ، وتبلغ من فيها بأنها تسمع وترى كل شىء من غنج ومضاجعة .. وتنفلت الضحكات منها بهوس لايوقفه غير تلصصها من جديد .

أما ليالى الأعراس فهى الوحيدة التى من حقها أن تدخل بالعريسين إلى حجرتهما لفض البكارة ، ودقائق ، وتخرج حاملة قطعة القماش البيضاء ملطخة بالدماء .. تهتز على نغمات الطبول والغناء الشعبى الذى لا يخلو من الجنس والشهوة ، وقد أشهرت القماشة فى وجه القائد ، وهى تدمدم بكلمات لا يسمعها غير الشيخ وحده :

- شرفها أهو .. فين شرفك يا عريس ؟

ويحاول الشيخ أن ينزع القماشة بعصاه دون جدوى ، فتجرى ريا هى والنساء شاهرة الشاشة البيضاء المخضبة بدماء طازجة خارج البيت وهى ممتلئة بالنشوة وسعادة غامرة ، فى الليل تراها تجلس وحيدة فوق عتبة البيت صامتة ، وهى ممسكة بطبق عامر بلحم الوليمة وحلواها .. تنادى أطفال الشارع الفقراء ، وأراها كطفلة فى تلك اللحظة ، وقد التف حولها الأطفال تطعمهم وهى تغنى ، وقد امتلأ صوتها بحنو

وحزن مفرط تجاهد أن تلملمه بضمة صبى أو صبية ، وعندما ينصرفون تدخل إلى البيت وهى تفتعل الضحك وقد سبت العروسين وشيخ الربع .

***

تزورنا ريا كثيراً برغم انقطاعها عن البيوت الأخرى لعلمها جيداً بأن من يشغلون تلك البيوت لا يرغبون بالاختلاط بها لمهابتها التى تجعلهم ينعتونها بالغجرية .. لكنها عندما تأتينا كأنها رمت بكل سطوتها وغضبها وخشونتها على عتبة بابنا ، وبمجرد أن ترانا أنا وأخواتى ترجع وكأنها صبية لا تخلو من الرقة والعزوبة. وغالبًا ما أراها تجلس فوق الأرض تقرفص قدميها ، تتحدث مع أمى بصوت هادئ لا يشوبه أى غضب ، وعندما تنصرف أمى لتحضر لها بعض المشروبات أسأل أمى :

– لماذا أتت ريا ؟

– تريد أباكِ .. وسوف تنتظره .

وعند دخول أبى إلى البيت وتلمحه .. تنهمر بالبكاء وهى تنحنى لتقبل يده ، ويجلسان بعيداً عنا يتحدثان ، وأسمعه وهو يحاول إرضاءها .

وهى مازالت تبكى :

– الرجالة مش سايبانى فى حالى بيتريقوا علىَّ فى وسط نسوانهم ،

ولما أبقى كويسة مع الكل ٠٠يتهمونى .. كل دا عشان البودرة ولحمر اللى بحطهم بالليل عشان أحس إنى ست ٠

وتذهب ريا من بيتنا يملأها الرضا والسكينة بعد أن قام أبى بتلاوة بعض الأيات وهو يضع يده فوق رأسها ، وعندما ينهى رقوته تجىء أمى وهى تحاول هدهدة ريا ووجهها لا يخلو من غيرة ، وكنت فى تلك اللحظات أتضامن مع أمى ، بل أزيد عنها رغبة فى التخلص من كل ما يشغل أبى عنا.

***

أفقنا على ضجة عارمة استيقظ لها كل من بالحى ، وعندما أطللنا من الشرفة ، رأينا ريا تمسك برجل وامرأة وتردعهم ضربًا مبرحًا بصحن الربع حتى أفاق كل من فى الشارع ، فهرعوا إليهم يحاولون الوفاق وفك العراك ، وكانت هى فى ذروة الغضب وقد ارتدت قميصًا فضفاضًا عاريًا من الصدر والبطن ، وقد بالغت فى زينتها ، وكان شعرها الغجرى منسدلاً فى فوضى جعلتها تبدو كأنها جنت فى تلك اللحظات وهى تطير فى الهواء بشهقات مروعة تداهم الرجل القابع أمامها ٠٠أما زوجة الرجل فكانت تصرخ وتستنجد بمن فى الربع ، وبعد انهمار دم الرجل ، دخلت حجرتها وهى توصد بابها بعنف وتلعن كل من فى الشارع ٠

وفى الصباح أشيع بشارعنا بأن ريا كانت تضاجع رجلاً ، وعلا صوتها وهمهماتها المكتومة ، حتى سمعها هذا الرجل وامرأته ، فداهما الغرفة ليلاً ولم يجدا غير ريا عارية ريا وحدها فى فراشها ، ولم يجدا رجلاً رغم سماعهما وهما يتلصصان من وراء الباب همهمة ريا وغنجها ، وعندما فاجأتهما بملابسها العارية حاولا الفرار والتراجع ، لكن ريا أصرت على الركض وراءهما ، ونسيت فضيحتها وانكشاف سرها الوحيد الذى تملكه فى هذا العالم ، ولم يعنها بأن أهل الربع قد عرفوا ممارستها السرية مع نفسها وخيالاتها الخاصة خلال تلك السنين التى مرت على الزوجة المهجورة.

ورق قلبى من أجل ريا ، وفكرت لو أنها امرأة ثرية لما انكشف أمرها .. لو أنها قادرة على استئجار بيت خاص بها لما انكشف أمرها .. بل ربما أتت بمن تهوى من الرجال دون علم أحد ، وخاصة لو كان البيت بأحد الأحياء الراقية .. لاستطاعت الحصول على حقها بالكامل دون تدخل من أحد:

- حتى الحق الجسدى يفرق بين غنى وفقير .

ولم أتجرأ أن أحدث أبى فى ذلك الأمر ، لكننى كنت أفرح عندما أرى ريا تضرب من فى الربع من رجال ونساء ، وقد كانت ترمى بالبطلان الزوج الذى رآها هو وزوجته أثناء تلك الحادثة ، بأنه يغازلها ، وتستدرجه للعراك هو وامرأته فى أيام كثيرة وقد بالغت فى صياحها ، ليسمع كل من فى الحى .

ودائمًا كان زوج ريا بمخيلتى يبدل النساء كما يشاء ، وهى قابعة هنا بداخل الربع تشيخ مع الأيام والسنين مع حرمانها من الحلم برجل داخل خيالاتها تأنس به فى لياليها الباردة الموحشة ، وإن داعبها الشوق تمارس بصمت وخوف وخجل ، وهى تعرف تمامًا بأن سكان الربع يعلمون بأمرها وكأنهم معها فى الغرفة ، بل داخل مخدعها الذى هجرته حتى الذكريات من سنين طويلة .

***

مرت أيام ، وهفت نفسى إلى هالة ، وكنت أتشوق لمعرفة ما وصل إليه عشقها لجارها المسلم ، وعلى الفور هممت لزيارتها ، وكنت لم أرها منذ وقت طويل .. وعندما رأتنى انهمرت دموعها ، وقالت لى بعتاب :

- البيت فضى علىَّ .

سألتها عن أخيها قالت :

- ربنا يخليه .

حاولت أن أخفف عنها عبئها ، فسألتها عن حبيبها ، فقالت وهى تسوى لى خصلات شعرى :

- وطى صوتك .. جدتى الجبارة هنا .. ما اقدرش أطلع البلاكونة وهى هنا ، أنت عارفة إن العمارة التى أسكن بها ملكها .. وغير كده ملناش حد غيرها دلوقتى أنا وأخويا هانى بعد موت ماما.

فررت أفتح البيانو لتعزف لى هالة لحنها المفضل تخونوه .. لمحت الكآبة التى لفت وجهها وكأنها كبرت عشرة أعوام ؛ فقلت لها :

– ليه لازم نلبس أسود فى الموت ؟

حاولت أن تضحك ، وقد بدلت لحنها إلىَّ :

– يا مامة بيضة .. ومنين أجيبها .. راحت يانينة عند صاحبها .

وأثناء عزفها ترقرقت عيناى بالدمع فقالت لى ، وقد توقفت عن العزف:

– ما بك ؟

قلت وأنا أمسك يدها لأحركها من جديد فوق أصابع البيانو :

– سوف نترك شبرا .. هل ستزورينى ياهالة ؟

– ردت وقد حاولت مداعبتى : إنتى يابت عبيطة .

ونزلنا معًا إلى الشارع لنرمي همومنا فوق أرصفته ، وحدثتها عن ريا وأزمتها مع زوجها ، وجلسنا فوق الرصيف كعادتنا أمام [سانت تريز] ، ثم مشينا إلى كنيسة [مسرة] ، وهناك قالت هالة :

– سوف أضع دستة شمع .. تفتكرى ربنا هيقف جانبى وأتزوج حبيبى.

فقلت وأنا يملؤنى الغيظ :

– رب الأديان واحد .. فلمَ لا ؟

– قالت : ياريت .

– قلت : إنتى بتصدقى غير كده .. دى كلها أمور سياسية .

وذهبنا إلى منزل جورجية ، وأثناء مناداتنا لها من أسفل البناية ، طل إلينا أحد الجيران .. قال وهو ينظر إلينا بغضب :

– غاروا .. مشيو

قلت لهالة ، وقد أمسكت بيدى فى تلك اللحظة ، وقد داهم قلبى حسرة :

– من غير ما تودعنا .

وعند ذهابنا إلى بيوتنا أعطتنى هالة زجاجات بها عقاقير لدواء اللوز ، وزجاجة مليئة بالعطر جلبته أمها لى قبل رحيلها عن الحياة .

تعلقت بصدر صديقتى وقد أجهشت بالبكاء ، وحاولت هى أن توارى دموعها ، فخجلت من دموعى التى تزيد من عذاباتها ، وفررت إلى خارج بيتها وفى الشارع كنت غاضبة أتجنب النظر إليها من بعيد ، ولكننى فى نهاية الشارع ألتفت وأنا أرمى إليها بقبلة ، وكانت كعادتها عند توديعى تنام برأسها فوق سور الشرفة ، وتضع يديها فوق أحبال الغسيل تحرك أصابعها ، وكأنها تعزف فوق أصابع البيانو ، ثم تهم مسرعة تبعث لى بقبلات كثيرة ، وعند آخر قبلة تترك يدها جامدة فوق فمها ، وكأنها لا تريد أن تفشى سراً بيننا .

ذهبت إلى منزلنا ، فلاحظ أبى حزنى وصمتى ، فحاول إضحاكى ليبلغنى بأن ريا جاءت إليه لتبلغه بأنها لاتطيق العيش فى هذا الربع ، وسوف تذهب إلى بيوت العجزة التابعة للكنيسة لخدمة كبار السن والمحتاجين وهى تفر بدمائها الساخنة من وطأة الحرمان والتمرد لتقبع ببيت ذى حوائط باردة ٠

- تخدم فى صمت بعد أن ابتلعت حسرتها وأحلامها ، لكنه الشوق إلى السكينة بعد سنين طويلة من حزن صاخب لا يهدأ أبداً .

- قلت لأبى : لو كان معها نقود لسكنت وحدها .

نظر أبى إلىَّ بأسى ، ثم تركنى وقد تظاهر بالانشغال فى وضع أسطوانة بداخل البيك أب ، فكرت فى هالة ، وتمنيت أن ترضخ لأموال جدتها ، لتصبح قوية وتفعل ما تشاء٠

* * *

بعد أن انتهى أبى من الموبيليا اقترح علينا أن نذهب على مرحلتين تنتقل أمى وأخواتى الكبار وأبقى أنا وأخواتى الصغار الذين مازالوا بالمدارس ؛ لأننا كنا على مشارف الامتحانات ، وكان يأتى إلينا كل يوم بعد المغرب بطعام فاخر يدللنا به ويطمئن علينا ، ولاينسى أثناء ذلك أن يحكى لنا عن مفاتن البيت الجديد ، ثم يذهب بعد أن يغرقنا بالقبلات ونحن متشوقون إلى رؤية منزلنا الجديد وماقاله أبى عنه من تعدد غرفه واتساعها بشرفاتها الكثيرة ، والتى تحيطها بود تماثيل عريقة لصبايا

وصبية من عصور قديمة وهم واقفون ببهاء ، وكأنهم حظو بالمشهد الأول للجنة .. تجاورهم الشرفات برحباتها وجلالها .

وقبل أن تنتهى الامتحانات بأيام قليلة كنا أنا وأخواتي الصغار مازلنا ببيت شبرا ونصف أسرتى تقريبًا انتقلت إلى البيت الكبير بحى الحسين ، وكنت أقف بالشرفة قرب العشاء أتأمل بعمق هذا الشباك البعيد ، وأحاول أن أفهم مايربطه بى وأنا على وشك ترك شبرا ، ثم فوجئنا أنا والجيران بزلزال ضخم فرّق ما فى شارعنا من جيران ، وامتلأ الشارع بضجة أثارت مخاوفى ؛ فقد كانت أختى لاتزال خارج البيت عند صديقتنا المشتركة تأخذ درسًا فى الكيمياء .. فقد كان لصديقتنا خال عالمًا فى الكيمياء ، وكانت تلك الصديقة لا تمل أبدًا من الحكى عنه ساعات طويلة ونحن داخل المدرسة أو عند التلهى بالحديث بالشارع ، وكنت لا أرتاح أبدًا إلى تلك الزميلة عكس هوى الشقيقة فى القرب منها .

فوجئت فى ذروة مخاوفى واضطرابى برجل يقف فى أسفل الدرج ينادى علينا ، وعندما حاولت أن أتبين ملامحه وهو يقف بالظلام ، ورغم بصيص من نور تسرب من خارج البناية .. لم أره جيدًا ، وأنا أقف بالدور الثالث ، وسألنى عن شقيقى الصغير :

– هل هو بخير ؟

– قلت : نعم .

- قال : أنا خال صديقتك وشقيقتك عندنا ، وهى خائفة جداً ، وتريد الاطمئنان على أخيكم .

انصرف الرجل تاركًا بقلبى فرحة تليها انقباضات لا أعلم ما سر هذا الاضطراب رغم انعدام رؤيتى لهذا الرجل .

- أيكون الصوت أحيانًا المعبر الأقوى عن الروح ؟

- أتكون الروح أكثر قوة ، وتصبح حرة ، ومهيمنة عند غياب الجسد ؟

وجلست فى مخدعى أبكى وكلى يقين بأن هذا الرجل سيصبح زوجى برغم سنى الصغيرة ، ومرت الساعات على روحى وهى ممتلئة بالرهبة حتى جاءتنى الصديقة ومعها شقيقتى ، وقالت لى وكأنها تعاتبنى :

- ليه مش عايزة تاخذى درس معانا؟ .. أنا كلمت خالى عنك.

غضبت منها وقد شعرت بالنفور والغيظ وملأتنى هواجس غامضة لا تخلو من الرهبة تجاه تلك الزميلة ، وإحساس مداهم باليقين ، وكأننى أرى سنينى الآتية من وراء حجاب شفاف ، ولا يحجبنى عن رؤية تلك السنين غير طول البعد.

وبرغم هواجسى من مجهول مداهم

مس قلبى وهج ما ، ورغم ذلك حاولت روحى الفرار منه ، دون

جدوى ، وعرفت بأن تلك الفتاة تحمل جزءًا كبيرًا من مستقبلى ، وقلت لها بعد إلحاح منها :

– ربما أحتاج يومًا واحدًا فى الكيمياء .

وعدتها بالزيارة ، وذهبت وهى فرحة وقد أغرقتنى بالقبلات ، واندهشت لفرحها وأنا أدمدم : إيه التفاهة دى ؟!

مر يومان ، والغد هو امتحان الكيمياء التى لم أعلم شيئًا عنها ، وبرغم ذلك كنت أنسحب عند آخر لحظة فأمكث مع أخواتى بعد أن أقرر الذهاب إلى تلك الصديقة رغم علمى بأننى سوف أرسب فى تلك المادة ، وكلما داهمنى ذلك اليقين بأن هذا الرجل سوف يصبح زوجى أجهش بالبكاء وأنا أفكر بأبى ، وقررت أن أحكى له عن هذا الرجل الذى لا أعرفه ، وسوف ينتزعنى من أسرتى ومستقبلى ، وأبى خاصة .

شرد أبى عند سماعه لى ، وقال :

– هانت ، باقى أيام وتأتون إلى الحسين .

وفى الصباح رغم مخاوفى أفقت على فرحة بداخلى جعلتنى أشعر بالاطمئنان والسكينة ، وارتديت ملابسى وأنا شبه مخدرة ، وكأن قوة ما هى المسئولة عنى ، وهى التى تحركنى حتى تركت باب بيتنا ، واتجهت إلى الشارع الذى تسكنه تلك الصديقة ، وعندما قرعت الباب جاءنى نفس الصوت الذى لفنى يوم الزلزال باضطراب العالم ، فترددت قبل أن يداهمنى ، وفكرت فى الهروب حتى فاجأنى صاحب الصوت وسألته –

وأنا أرتعش - عن صديقتى ، وعندما جاءت ، اعتذرت لها عن الدخول لأننى تذكرت شيئًا مهمًا على القيام به ، فسحبتنى إلى الداخل وهى تضحك ، وقد كان خالها يرمقنى بعينيه المبهمتين من تحت نظارته الطبية ، وبمجرد خطواتى الأولى إلى داخل البيت عرفت بأن حياتى سوف تتبدل منذ تلك اللحظة ، لكن بهجة ما تملكتنى وأنا جالسة أرقب هذا التغيير ، وجاء مجدى وهو يحاول أن يوارى اهتمامه وفتنته بى ، يسأل عن كتاب الكيمياء ، وجلسنا نحن الأربعة أنا وهو وشقيقتى والصديقة لنراجع دروس الكيمياء .. لا أدرى بالضبط فى أى ساعة أو دقيقة أو ثانية جاءنا الحب رغم صغرى ، هل جاء عبر الصوت وهو يقف بأسفل الدرج ينادينا؟ أم عند لقائنا الأول ، وربما جاء الحب منذ سنين بعيدة.

وفى اليوم التالى بعد انتهائى من امتحان الكيمياء توجهت قدماى إلى بيت الصديقة دون إرادة منى ، وكأننى مخدرة ، وكأن فؤادى يهفو منذ أزمنة ولت إلى هذا المكان ، وعند وصولى كان مجدى بانتظارى بحجة الاطمئنان على الامتحان ، وشعرت بأننى داخل مصيدة عميقة من صنع القدر ، وقررت الفرار وأنا أجرى ناحية الباب وصديقتى تنادينى أن أنظر معها من فتحة الشباك ، وقالت وهى فرحة :

- أنت عارفة إن بيتكم بشوفه من هنا .

- قلت لها وأنا أجرى ناحية الشباك رغم تصميمى على ترك المكان :

- فين ده ؟

أشارت لى ، ورأيت بيتنا بسطحه الرحب والأولاد يقفون به يطلقون طائراتهم الورقية ، وقلت لصديقتى :

- سطح بيتنا أكبر سطح بشبرا .

- قالت : لما تروحى البيت هشاورلك من بعيد عشان تعرفى شباكنا وعندما لوحت لى من بعيد .. كنت أترنح بداخل الشرفة ، ولم تستطع قدماى حملى فجلست أبكى وأنا أردد : عرفت خلاص .

ذلك الشباك الذى كانت طائرتى تتعلق به أثناء طيرانها عبر سنين الطفولة .

. اتصلت بوالدى وأنا أبكى ، وحكيت له عن ذلك الشباك وطائرتى التى كانت خلال سنين مرّت تهبط من السماء ، وتتعلق بأعمدته الحديدية .

- قال أبى بغضب :

- تعالى إنتى وأخواتك ٠الامتحانات انتهت .. بسرعة لموا حوائجكم .

وهربت من قدرى إلى حى الحسين دون أن يعرف مجدى وزميلتى برحيلى، مرت أيام وجاء [مولد الحسين] بصخبه المداهم ، وخيره العامر ، خاصة أن أبى يذبح عجلاً للمولد ، وكنا منشغلين بتحضير لحمه بداخل الأرغفة التى يحملها عمال أبى بداخل الأسبتة إلى القابعين حول المقام الكبير بجامع الحسين ، وأثناء ذلك الصخب اتصل أبى بنا يبلغنى بأن

صديقة لى أتت إليه برفقة أبيها وخالها وهم يجلسون الآن عنده فى تلك اللحظة مدعيين بأنها الصدفة فقط هى التى جمعتهم بأبى ، وعند مجيئه إلى المنزل هممت لأعانقه وهو يمسح فوق رأسى بحنان ، لكنه كان صامتًا ، وكنت أنا الأخرى لاأرغب فى الكلام .. ينظر كل منا إلى الآخر بفهم عميق لما يحدث حولنا ؛ فأبى يعرف جيداً ما الذى يحدث معى منذ سنين عبر ذلك الشباك ويفهمه جيداً ؛ فلقد وقعت معه أحداث كثيرة مماثلة ورؤى تحققت كشفت عنها روحه الخفيفة بعضًا منها ، وكنت شبيهة أبى والقريبة من نفسه ، وقد ورثنى تلك الدلالات الروحية الخير منها والشرير.. المفرح منها والمفجع حتى كرهتها ، وخاصة عندما كانت تبلغنى بموت عزيز أو فراق للأحبة ، وكثيراً أعرف نهايات لحكايات سعيدة قبل أن تأتى.

***

توالت الأيام ومجدى يصر على الارتباط بى رغم خطبته التى لا تزال قائمة لإحدى قريباته ، وقد أوشك زواجه على الاقتراب ؛ لذلك كان يطلبنى عبر الهاتف ، ولم يرد على أحد غيرى ، حتى جاء يوم واستطاع فسخ خطبته رغم معارضة أهله .. وكنا نتقابل سراً من وراء والدى .. بعد ما كنت أهرب منه ومن قدرى .. أحببته رغمًا عنى وعنه ، وعرف أبى إصرارى على زواجى به فامتلأ قلبه بالحزن. وكان يجلس أثناء الليل شارداً بروح ممزقة ونفس حائرة ، أصبحت رغبتى فى

الزواج بمثابة التعاسة الوحيدة المؤرقة لأبى ، وكأنها جمرات ملتهبة تسكن مخدعه فيفر منها أثناء الليل يبحث عنى ، وهو ينادينى ثم يتوارى بداخل حجرته فى صمت يتلو الأوراد التى لم تفلح معه تلك المرة ؛ فهو يعرف جيداً : لماذا لم تفلح أوراده معى !!

***

ومضت الليالى وهو يكتم غيظه وينظر إلىّ بعتاب ، وكلما تجادلت أسرتى فى شئون زواجى .. يكتفى بالصمت ، لكنه فى أثناء كل فجر يستمر على قراءة الأوراد لعلها تستجيب .

قبل عقد القران بلحظات وقد امتلأ بيتنا بالمدعوين من أقربائى وأهل الخطيب.. أشار لى أبى فى الخفاء ، وعندما ذهبت إليه انفرد بى بالشرفة وهو يجاهد فى إقناعى بالعدول عن قرارى والامتناع عن عقد القران وإن أطعته سوف يزيد لى مصروفى ، وسألنى كم يأخذ خطيبك كل شهر من وظيفته؟ وعندما أجبته قال :

– سوف أعطيك هذا المبلغ .

– قلت بغضب : دى فضيحة .

– قال وهو يطمئنى : سوف أواجه أنا تلك المشكلة .

عندها فررت منه إلى الداخل ، واستنجدت بأمي التي غضبت عند سماعها هذا ، وجريت أجلس بجانب المأذون . وبعد الانتهاء من عقد القران ، برغم سعادتي ، لكنني أحسست بأنني وقعت في فخ نصبته لنفسي ، ورقّ قلبي من أجل أبي ، وشعرت بالحقد ناحية أمي التي كانت تستقبل تهاني المدعويين بسعادة عارمة ، وكأن السبب الوحيد لسعادتها خلاصها من واحدة من الست بنات اللواتي يشاركنها في حب رجلها الوحيد.

وبالمطار وأسرتي تودعني للسفر إلى زوجي وكنت أعتلي سلم الطائرة ، داهمتني صرخة مدوية ملأت السماء والأرض .. وكانت لأبي وهو ينادي اسمي وكأنني أوشكت على الغرق في بحر هائج كالغول ، وتعثرت قدماي من فرط التمزق والحزن ، وعندما نظرت ورائي رأيته يترنح وهو يلوح لي بيديه وأخواتي يسحبوه إلى الوراء ، في أثناء الرحلة لم يهدأ أبدًا صوت أبي الملتاع داخل رأسي وروحي ، وعرفت بعد أيام من أمي عبر الهاتف بأن أبي أصيب بنوبة قلبية بعد رجوعهم من توديعي.

***

مرت شهور ، وجئنا إلى القاهرة ، ونزلنا ببيت أسرتي ، وكان أبي يتظاهر بحبه لزوجي ، حتى يجيء الليل وقد ذهب كل إلى مخدعه ،

وعندما ينادينى زوجى لألحقه بغرفتنا ، وعند سماع أبى لندائه يطلب منى برقة أن أجلس معه وأترك زوجى ينادى أو أدعى بأننى لا أرغب فى النوم الآن ، تكررت تلك الحادثة كثيراً ، وعرفت بأن أبى لا يطيق أن يلمسنى أحد. وتكرر ذلك المشهد القديم.. أمى تنام وحيدة بعيداً فى مخدعها وزوجى فى الجانب الآخر من البيت وقد يئس من انتظارى فقرر النوم ، وبين غرفة أمى وغرفة زوجى نجلس أنا وأبى نتحدث حتى الصباح ، وحين تسكنه السكينة يطلب منى الذهاب لأنام ، ويظل وحيداً فى هذا المكان مغمض العينيين يجاهد للفوز بغفوة.

وفى الصباح عندما أسمع صوته بالخارج لا أستطيع أن أخرج من غرفتى أبداً لشعورى الدائم بأنه قد سمع محاولات زوجى وتحرشاته الملحة التى أستقبلها بغضب ، وكأن أحداً حاول أن ينزع حقاً منى دون إرادتى .. وبرغم رفضى لزوجى ، لكننى عند سماعى لصوت أبى أشعر بالجرم والعار ، فأظل فى فراشى حتى يخرج من البيت ، ولا أتحرر نهائيًا من سطوة إدانة أبى لى وتجريمى فيتملكنى الحزن والحيرة ، وأحاول التوحد مع أمى والتقرب منها فأساعدها فى أعمال البيت ، ثم نجلس معًا بشرفة بيتنا فى انتظار أبى .. رجل البيت الوحيد.

الفصل الخامس

حــــفـــــرة

لا أعلم لماذا أكتب عن جدتى ، لكننى أدركت أشياء أثناء الكتابة كنت أجهلها ، وهى حب أبى لأمه حتى الجنون منذ كان طفلها المدلل والوحيد حتى بلغ السابعة ومات أبوه ، وكان يحكى لنا كيف كان والداه يتسابقان بالبراهين لإثبات من يحبه أكثر من الآخر .. حتى وصلت تلك البراهين إلى شرب [بوله] ومن يعب منها أكثر يكون هو الفائز ، ثم يغرقونه بالقبلات والتدليل ، وهل يكفى هذا التدليل ليحب أبى أمه إلى هذا الحد ، وكنت أجهل حبه لأمه حتى ذلك المشهد الذى لا يغيب عنى أبداً .. وجهه المترب وهو عائد من مراسم دفن جسمانها وقد خلت عيناه من أى تعبير ، عدا الثبات كأنهما عينان لكهل فاقد البصر ، لم يبك أمامنا ، ولكن عند جلوسنا حوله للعشاء .. كان يبدر حبات الأرز بيده وهو يهم بأكلها حتى التصقت الحبات بقميصه فوق الصدر ، وبعض منها تناثر حول صحنه ، وحبات تبعثرت تحت المقعد ، وقد نحى الملعقة بعيداً عنه فى سخرية ، وقد امتلأ صوته برنين غريب كأنه لامرأة تحاول أن تقلدً رجلاً .. وكان الإرهاق والتمزق يملآن نبراته وهو يحاول بصعوبة

أن يتحدث كأمه وبصوتها ، وعند تعثره يصمت وهو ينظر إلى قاع الصحن الفارغ ، وعلى طرف شفتيه ابتسامة تكاد تنسحب منه قبل أن تأتى ، ورأيته لأول مرة يتحدث بلكنة الفلاحين ، ولا يتوقف عن ذلك إلا بنصف ابتسامة مفعمة بسخرية ومرارة خامدة كالتى تمتلئ بها وجوه من فقدوا إيمانهم وأصبحوا يرون الحياة بأنها جثة منتفخة لاتمتلئ إلا بالروائح الكريهة. والعبث .. كل هذا الحب نالته تلك المرأة فى حياتها وموتها حتى فاق رغبة أبى فى أن يدفن معها رغم يقينه بحرمانية هذا الفعل ! تلك الرغبة المجنونة لم تبرحنى أبداً وأنا فى الغربة حتى جاء ذلك اليوم بتفاصيله المسكونة بالرؤى كتميمة منسية .. كنا ننام أنا وزوجى وأولادى على الشاطىء بخيمة من قماش خشن مجدول . وفى الصباح عند العاشرة تماماً فاجأتنا ونحن جالسون أمام البحر نوبة عارمة من الضحك الهيستيرى الجنونى ، ولم يوقفها غير ذلك المشهد المروع لأبى وهو مسجي بعد أن فارق الحياة وقد تم غسله فوق مائدتنا بالبيت الكبير ... جمدنى ذلك المشهد ، وعند انهمار دموعى لم أشعر بيد زوجى وهى تهدهدنى ، ولا صوت أولادى ، ولا حدة موج البحر الهائج . قد فرت كل الأصوات ، وكأن روحى وجسدى فى تلك اللحظات غير معنيين بالحياة ... لكنه شىء آخر خفيف وأثيرى سحبنى معه برفق وقوة غير معلنة كالسحر حتى طفوت فوقه وهو يحملنى شبه مخدرة أحلق دون أجنحة فوق ذلك اللحد المفتوح ، والذى يبتلع رفات جدتى ، لكننى رأيتها تبتسم لى وغفوت من جديد رغم الفناء وجسد أبى المسجى بجانبها تغمرهما الأسرار وسلام نابع من خلاصهما من الدنيا بقوانينها الزائفة وقد حظيا بغفوة حقيقية وآمنة كأول غفوة فى الحياة .

عرفت بعد أيام من أمي بأن أبي قد مات عند العاشرة صباحًا ، والغريب بأن ساعة الحائط المفضلة لديه تجمدت حتى يومنا هذا عند العاشرة ، ولم تجرؤ أى من أخواتى مساسها أو حتى التفكير فى تحريك عقاربها ، تحققت رغبة أبى المحرمة ودفن بجانب أمه رغم امتناع حفار القبور . قالت أمي - بعد رفض الحفار : داهمنا رفات الجدة .. لذلك رضخ الحفار لرغبة أبى وضمهما قبر واحد .

هذا القبر الذى كلما زرته تملكتنى الرغبة حتى الآن فى فتحه ، وأخجل من نفسى كثيراً عندما تملؤنى الرغبة فى الاطمئنان على جزء واحد من الجثمان لذلك أمكث كثيراً أمامه ، وأتخيله هيكلاً عظميًا متداعيًا إلا من هذا الجزء هو الوحيد الحى والنابض من هذا الهيكل ، أفر من تلك الرغبة التى بدأت معى منذ أن كان أبى مريضًا وأنا أمكث بجانبه حتى الفجر ، وعندما يداهمنى التعب أنسحب بهدوء من جانبه ، لكنه يبكى كالأطفال ، ويطلب منى بإذلال أن أمسد قدميه المريضتين ، وكنت لا أفر منه إلا وقد سحب منى كل شهوة فى الحياة وكل رغبة فى زوجى وفى أى رجل ، وأظل أبكى فى فراشى عندما أتخيل أبى ذابلاً ، وأتعذب من أجل هذا .

* * *

مرت الأيام والسنون فى انسحاب واهن كجندى مهزوم ، لكن شيئًا كان يحفر بقلبى ببطء وألم ، ويداخل كل حفرة تستقر آهة مكتومة تلهب ذاكرتى ، وتزلزل كيانى وتملؤنى رغبة فى الانسحاب من كل شىء حولى ، وخاصة زوجى وهو يطلب جسدى ، ويناديني بصوته الذى يحفر

برأسى كعدة مطارق مدوية ، ولا يسعفنى النسيان فيتبدل صوته بصوت أبى وهو ينادينى فيختلط الصوتان فأمتلئ بالجنون والتمرد .. عندها يملأ زوجى رأسى بجملة الذكورية التى يرددها الرجال الشرقيون لزوجاتهم عند امتناعهم عن المضاجعة : إنت باردة .

وعندما أرضخ له وأنا ثملة بالذكريات أقوم من مخدعنا ، ولا يوجد شىء برأسى واضح غير كلمات أمى لى بعد زواجى بشهور قصيرة ، وكنت لم أبلغ السابعة عشرة .. لكننى كنت الأولى من أخواتى التى تزوجت فعاملتنى أمى كراشدة ، وبررت لى لماذا ينام أبى بمقعده ولا ينام بغرفة نومه ، وكانت تبكى وهى تقسم بأنها لا تريد منه شيئًا وبصوت معذب قالت :

– أريده أن ينام بفراشه ليرتاح .

– عندما سألتها : هل أبى لا ينام معك ؟

– قالت : منذ سنين .. يخاف من الأزمات القلبية .

ولا أنسى أبداً وجه أبى فى تلك اللحظات وهو يدندن مع الموسيقى وينظر إلى أمى بحنو مفعم بالخجل كعاشق مهزوم .. ويمتلئ قلبى بشفقة مفرطة تجاه أبى تطاردنى حتى الآن ، جعلتنى سنين طويلة يعتصرنى الأسى ، وقد شدنى العذاب إلى رفضى لزوجى ، وكم تمنيت كثيراً لو أننى لم أرحل عن أبى أبداً ، ولم أعرف السفر وأنعم بتلك السنين بجانبه ، ربما خففت من وطأه عذابه الذى مزق قلبى وملأنى إحساس بالذنب ، ولا أنسى أبداً تلك النظرة من عينيه وأنا أجرجر

حقيبتي متأهبة للرحيل تاركة جسده المريض ونفسه الممزقة وقد لفني اليقين بأنها المرة الأخيرة التي سوف أراه فيها .. تلك النظرة التي امتلأت بالفراق اللازع والفواح في مرارته ، حتى ملأ كل الغرفة في ذلك اليوم القاسي والخالي من أي وجود للرحمة ، وعندما سافرت تأكدت بأن إقامتي ما زال بها شهر كامل وليس كما يدعي زوجي :

- إن لم تسافري حالاً سوف تنتهي إقامتك ، ولن تستطيعي السفر .

وعرفت بأنها لعبة من زوجي لاحتياجه إلّي كي أرعاه طوال اليوم ويضاجعني في الليل ، وعندما وصلني خبر وفاة أبي امتنعت عن زوجي إلى الأبد ، وكرهت كل نظرة تفضح عن شهوة من كل الرجال الذين حولي .. وكرهت رائحتهم ولهاثهم وهم يحدقون في جسدي دون ملل ، كرهتهم حتى الغثيان ؛ مما جعلني أستغرق أكثر بداخل نفسي والتوغل في أعماقها .. أحفر في بعض خلاياها الميتة عن ذكرى حبيبة تذكرني برائحة البلح.

* * *

لم تنسَ أمي فور دخولي إلى بيتنا أو البيت الكبير بأنها هي التي دفعتني للسفر بإلحاح وهجر أبي المريض ، وبمجرد أن رأتني امتلأت عيناها بالفزع وإحساسًا متفاقمًا بالذنب ، ثم قالت وهي تعانقني بصوت مرتعش متهدج :

- والله ما كنت أعرف .

- قلت وأنا أحاول الابتسام :

– إزاى .. كل المرض ده ما كونتيش تعرفى .. أنا نفسى أعرف ليه كنتى عايزانى أسافر .

– وعندما بكيت أسرعت لتخفف عنى وعنها :

– أنتى بالذات .. ربنا رحمك ما كنتيش هتقدرى تشوفيه وهو ......

ثم أجهشت بالبكاء ، وبرغم دموعها المنهمرة لم تغفر لها ذنبها العظيم عندى.

ومرت السنوات ونحن على هذا الحال .. سد حائل بينى وبينها ، وكأن مكتوبًا علينا أن يقف أبى بيننا فى حياته ومماته ، وكبر حزنى مع الأيام وصمتى الغاضب ، ولم أعاتبها أبدًا .

* * *

عرفت مع مرور السنين بأن زوجى لا يشبه أبى أبدًا ، وربما حاول زوجى التشبه به ليرضينى ويتفوق عليه ، وكان كثيرًا ما يغار من مديحى لأبى ؛ فزوجى هو المدلل الوحيد بداخل أسرته ، وأصغر إخوته وأحلاهم ، والوحيد الأشقر فى عائلته بكاملها .. تلك العائلة التى رحلت عن صعيد مصر منذ سنين بعيدة .

فبعد رحيل أبى كشف زوجى كل خصاله السيئة ، والتى كان يواريها وأبى ما زال حيًا فوضحت أنانيته وضآلة قدرته على العطاء ، وكنت أتعذب من أجل صغارى المهملين من أبيهم رغم ذكائهم وتميزهم .

وأصبح زوجى مع الأيام لا يشعر بوجودهم ، وبرغم ذلك يفرض علىَّ دور الأم والزوجة معًا وقد رمى إلىَّ بكامل مسئولياته بعد أن أضاع كل أموالنا وممتلكاتنا ، ومع قسوة الحياة وخشونتها .. نسيت أنى امرأة وقد فقدت الإحساس بالأمان بجوار الرجل .. وكفرت بمعنى الرجولة وما تحمله في مجتمعنا من نعرة كاذبة وادعاء بها .. ليس لقيمتها الحقيقية وما تحملة بداخلها من نبل وفروسية ، بل لإثبات الفحولة عن طريق الفراش والتباهى بذلك العضو ، وكأنه سوف يفتح ممالك وحضارات ، وسواء فى الحلال أم الحرام وبتوافر القدرة الجنسية أو انعدامها .. يظل هذا الشىء هو الهم الأول عند الرجل ومغزى رجولته دون فعل لما تحمله الكلمة من معانى سامية وأخلاقية.

ازداد زوجى فجورًا مع الأيام ، وقد تخلى عن كامل مسئولياته تجاهنا ، وأصبح يفتقد حتى الرغبة فى العمل ، مرت سنوات كثيرة لا نملك حتى خبز الفقراء ولم يتحرك له ساكن ، اللهم إلا الشهوة التى يمتلئ بها .. ويتحرش بها وتتحرش به ، ويتحرشان ، بى وأنا مثقلة بالهموم والحزن . وعند شعورى بالخوف من مصيرنا المفجع أنا وأولادى ، أتذكر أبى والأيام الخوالى ، فأذهب إلى بيت أسرتى أحيانًا كثيرة فى ليالى الشتاء البارد للحصول على نقود أو طعام ، وكانت أمى مخدعًا دافئًا لى فى ليالى كثيرة موحشة ، وبرغم جرحى الغائر تجاهها ، لكننى كنت أشعر بأنها قريبة منى رغم إصرارى على صمتى ، وإن تحدثنا لا أذكر أبى أبدًا وأهرب من رغبتى الملحة فى عتابها وسؤالها :

- لماذا يا أمى إصرارك على سفرى رغم احتضار أبى ؟

وكم تمنيت أوقاتًا كثيرة لو أستطيع محاكمتها ، لكننى كنت أخاف نزف هذا الجرح الغائر بقلبى .. فأكتفى بصمتى المفعم بالغيرة تجاهها برغم رحيل أبى ، لكنه وفّر لها الأمان فى حياته ومماته رغم تداعى قدرته الجنسية. واكتفى زوجى مع الأيام بقدرته الجنسية الفائقة ، وكانت الليالى السوداء علينا أنا وأولادى تلتهم كل شىء يربطنى به ، خاصه عند مرض أحد أبنائى أو اقتراب خطر ما يداهم حياتهم ، وزوجى يكتفى بالنظر ومصمصة الشفاة والتضرع إلى الله أن يسترها ، حتى تعوّد أبنائى أن يلجأوا إلىّ فى كل شىء ، وأصبح الرجل فى حياتى فكرة وهمية اللهم إلا طيف أبى الذى يلوح لى فى ليالى الوحدة والألم وضياع الطمأنينة ، فأحن إلى الماضى بأيامه الآمنة ، وإلى قبلات أبى المفعمة برائحة البلح والعنبر.

الفصل السادس
أنا من ضيع فى الأوهام عمرًا

لا أظن أن تلك المشاعر النقية والآمنة التى تشبه فى دفئها احتساء حبيبين لكوبين من الشاى الساخن فى مقهى باردة ، وقد جلسا بالقرب من ركية للفحم المشتعل ، وقد توهجت عيناهما ، ولمعت مآقيهما وهما يتحدثان ، أو ذلك الدفء الرائع المنبعث من أنفاس أبى وهو يمر بغرفتنا ونحن غافلون ، أو تلك الروح القديمة الحانية ، والتى تسكنا بخدر ، وقد لفتنا روائح مألوفة أرتخت من أجلها الجفون فى سلام ونحن جالسون حول أبى وقد توسطنا يقلى السمك فوق (الوابور الكبير) ونحن منتشون بصوت الوابور وصوت أبى وهو يحكي ونحن شبه غافلين من رائحة الجاز المحترق ، وقد أسرع بالتقاط قطعة من السمك من داخل الزيت المغلى ، يقسمها معنا ليوقظنا من إغفاءتنا بمذاقها اللذيذ الساخن ، وصوت أمى وهى تمر بنا تزمجر وتأمرنا ألا نشبع .. لا أنسى عطرها الطازج وهو يختلط برائحة السمك وخليط من رائحة خفيفة لعرق المراهقة البكر لى ولأخواتى وهو مفعم برائحة صابون خاص كان أخواتى يستحممن به .. تلك الروائح المختلطة ، كانت أوردتى تهدأ من أجلها ، ويخدل دفئها الساكن جسدى الذى أرتوى بكل هذا الدفء عبر تلك السنين المطمئنة.

لا أظن أن كل هذا كذب .

وبدأت شيئا فشيئًا أقنع نفسى بأن كل تلك المشاعر التى أحسها وأنا بجوار محمود ليست وهمًا ونحن بداخل سيارته ، وقد وضعت يدى فوق إحدى ساقيه .. أغفل بين الحين والآخر ، وبين الغفوة والصحوة نجلس أنا وهو بين الماضى والحاضر ، فأغمض عينى من جديد حتى لا يتسرب الماضى ويفر.

تلك اللحظات كانت وقعها لدى أعظم من الذكريات المحمومة بها ، وتمنيت لو مت مع هذا الشعور أو توقف الزمن ، وملء جفونى ونفسى ومسامى ذلك الدفء القديم وتلك الطمأنينة التى ولت ، ومحاولتى الدائمة فى استرجاع شىء منها مع هذا الرجل الذى يشبه أبى أو هذا ما تمنيت ..لا أدرى ، كنت أفتح عينى وأتأمله وأنا مازلت ألصق يدى بإحدى ساقيه كأنى أتشبث بها ، وكانت الروائح القديمة تملأ العربة ، وأزيز الموتور يصدر صوتًا حميمياً يستدعى ذكرى أخرى أو أستدعى أنا معه ذكريات قديمة لأكمل الحكاية أو أستدعيه ؛ لأننى مازلت أستعذب ذلك المرض ، وأتعلق بتلك النشوة التى تملأ قلبى وأنا أخلط القديم بالجديد ، الطفلة بالأنثى .. أخلط أبى فى الماضى مع الرجل فى الحاضر ليكون هذا الرجل الذى بجوارى (محمود) هو منتهى غايتى.

* * *

طنين الموتور يساعد على اجترار الذكريات وذراع محمود الدافئة تسحبني من الواقع إلى تلك النشوة الآمنة ؛ فهناك قديماً كان أبى جالساً بجوارى ، وكنا بداخل سيارته نملأ العربة أنا وأخواتى بأجسادنا اللدنة وعظامنا الدافئة وأرواحنا الخفيفة ، مسافرين ليلاً إلى الريف وذلك الموتور يصدر أزيزاً محبباً إلى نفسى حتى الآن .. كانت الليلة شتاء والعتمة تخيم على كل شيء ؛ فالمروج الخضراء الرحبة أصبحت فى ذلك الليل كأحراش غابات لحكايات أسطورية ، وأصبحت أشجار السرو العالية كالأشباح المعلقة فى الهواء ، والتى لا تهدأ أبداً ، وبرغم ذلك امتلأ قلبى بالطمأنينة ، لأن أبى كان معنا ، وكنت أرى كل هذا كفيلم من الورق يتحدث عن الأشباح والعالم السفلى .. وأصبح الليل بظلامه وسكونه كصندوق الدنيا مظلم ونحن بداخله كالألوان المضيئة المبهجة نتحرك بداخله والعالم الخارجى لايهم ، وكان أبى يتحدث إلى سائقه الخاص بحميمية كأنهما صديقان منذ سنين بعيدة وصوت أبى يملؤه الاحترام الذى لا يخلو من الجدية .. يتخللها بعض المزاح وكأنهما فى عمر واحد بالرغم من صغر عمر السائق بالنسبة إلى أبى ، وقرب منتصف الطريق ، وقفت العربة ، فقد كان أبى يريد أن نتناول عشاءنا بهذا المقهى ، وقال لنا وهو يوجه حديثه إلى السائق بمرح :

– هعشيك كوارع .

ونزلنا ونحن مبتهجون رغم الليل الحالك وصوت الرياح وهى تعبث

بالأشجار وبثيابنا ، لكننا كنا فرحين بوجوه مشرقة ونحن ندلف إلى المقهى الريفى .

عندما انتهينا من عشائنا طلب منا أبى أن نركب العربة ، لكنه بقى هو والسائق بالقهوة ، ورأيت ثلاثة من الرجال يحيطون أبى وسائقه ، وسمعت أمي تقول وقد زاغت عيناها خوفًا بأن هؤلاء الرجال لصوص ، ورأيت أبانا يتحدث إليهم بودٍ خالٍ من العنف ، وبعد مشاورات تمت بصمت ، استقل العربة هو وسائقه وقد وضع سلاحه فوق التابلوه وهو يضحك مع السائق ، وعندما شعر بأن الخوف مسّنا أوقف السيارة ، ورجع إلى الصالون الخلفى يجلس بيننا ، وكنت أنا الفائزة بذراعه وإحدى ساقيه ، فغفوت وملء قلبى الامتنان له والله الذى منحه لنا .. تلك الطمأنينة التى رحلت مع رحيله لم أسترد شيئًا منها إلا مع ذلك الرجل ، لكنه لا يدعنى أستغرق فيها حتى النهاية إلا ويكشف لى عن نفسه الحقيقية ، قال وأنا مازلت أتشبث بذراعه ويدى الأخرى فوق ساقه :

- هل كان أبوك مريضًا بالقلب ؟

فاجأنى سؤاله ، وأحسست بأنه انتزعنى من الماضى البعيد ، وتمنيت أن أقول له: أنت أبى .

وتذكرت على الفور وجه أمى المعذب ، وكبح رغباتها ، ونظرات أبى الحزينة حتى فى غمرة ضحكاته.

- قلت لمحمود : هل تعرف أن عينيك تشبهان عينيه ؟!

- وقلت فى نفسى : حتى الشبه فى الحزن اللى جواهم .

- ليه الحزن دا يامحمود حتي وانت سعيد !

- كرر سؤاله : ألم تقولى لى بأن أباك مريض بالقلب ؟!

- قلت وأنا غاضبة : نعم .

- قال : لماذا أنت غاضبة ؟

وسرح بعيداً وكأنه يرى عالمًا آخر وهو يقود العربة ، وسألنى :

أنت طبعًا مثقفة .. خلينا نتكلم من غير خجل .. أنت عارفة إن مرض القلب يؤثر على الطاقة الجنسية .. هل كان أباك ......

وعلى الفور طلبت منه أن يوصلنى إلى بيتى وقد أبعدت يدى عنه ، لكنه بدأ الأسئلة من جديد :

- هل والدتك كانت تحب أباك حتى رحيله ؟

- قلت وقد تمنيت فى تلك اللحظة أن أقذف بجسدى خارج العربة :

- نعم .. كانت تعبده .. فاهم .. فاهم يا محمود .

- قال وهو مندهش من ثورتى : ست عظيمة .. هل أنت مثلها ؟

- صمت .

- قال : ممكن أن تخلصى لرجل من غير ......

- قلت وأنا أصرخ فى وجهه :

- فين الراجل دا يا محمود .. يحبنى ومش عايز جسدى .. فين يا محمود؟

- أنا مستعدة أبيع العالم كله علشانه.

حاول محمود أن يهدئ من ثورتى وهو يمسح على شعرى ولأول مرة أشعر بأنه سعيد ، وعندما نظرت إلى وجهه المرتاح فى تلك اللحظة ، رحت فى غفوة وقد ملأ قلبى سلام ، سحبنى إلى منزلنا بشبرا ، ورأيت أبى وهو يجلس معنا يشاركنا الطعام وقد ملأت قهقهاته البيت وهو يجادل جدتى فى الحديث وهى لا تعبأ بضحكاته ، وقد ملأ قلبها الغيظ وامتلأ قلب أمى بالغبطة .

* * *

فى الصباح أفقت على عينى محمود الحزينة فاتصلت به فور انتهائى من حمامى ، فردت علىّ امرأته ، وجاءنى صوتها مفعم بالسكينة كصوت أمى ورق قلبى لها دون أن أعلم لماذا ؟ وسألتنى بدماثة خلق عن اسمى قلت وقد اختلج صوتى :

- سارة يا هانم .. كاتبة .

- ثم جاءنى بصوته الأجش الخشن لكنه يحمل إشراقة .

- قلت : ياترى ما سر هذه السعادة ؟

- قال : إنت ليكي فضل عليا كبير .. رجعتيني لكتابة الشعر تاني .. إظاهر أنت ملهمة نادرة .

وبعد انتهاء المكالمة شعرت بالحزن ، وقلت: لقد وقع هذا الرجل في غرامي وحاولت الفرار منه أياماً طويلة ، لكنه كان يلاحقني في الهاتف ، ويختلق المبررات وهو يغريني بالكتابة عنده بالمجلة التي يرأس تحريرها ، لكني أرفض ، وفي كل مرة يحاول إقناعي ، لكنه في النهاية يفشل فيملأ صوته الحزن فلا أتحمل نبراته الحزينة ، وأعده بأنني سوف أبدأ معه العمل بالكتابة في المجلة ، لكنني فور وضعي لسماعة الهاتف أشعر بالغثيان ومرارة تصيب حلقي بطعم عصارة المعدة كتلك المرارة التي تصيب أفواه المغتصبات بعد انتهاء الجاني ، وكلما تأكدت بأن محمود يريد أن يبدأ معي علاقة أشعر بالحرمانية وبدوار ، ذلك الدوار الذي يلاحقني منذ سنين طويلة.

عرفت بأن هذا الرجل لن أستطيع الفكاك منه ؛ فأحسست بالفزع وقررت الابتعاد عنه ، لكن هاتين العينين اللتين تناجيان الطفلة بداخلي ظللت سنين أبحث عنهما :

آه لو يسكن ذلك الوحش بداخلك يا محمود وتنسى ذكورتك ، وتنسى بأنني امرأة ، لاكتملت سعادتي في هذا العالم.

* * *

في الليل غفوت على ذلك المشهد .. أراني أفتح قبر أبي وأنا أمعن

النظر ، ثم تنزلق قدماى بداخل القبر ، ولا أسمع سوى صوت بكائى وصوت ناى أبى ينوح كبكاء عليل فأفيق ، وملء روحى عذابات لا تنتهى.

* * *

كان ميدان التحرير يعج برجال الأمن ، وخاصة أمام المتحف المصرى وقد حوطوا المكان ، وكانت الانفجارات تدوى فى السماء ، وشعرت بجسدى وهو يعدو مع جحافل من البشر ذوى وجوه فزعة ..

– سألت أحدهم : ما الذى حدث ؟

– قال : إرهابى فجّر عربات السائحين وجاء آخر كان يدفعنى ، ويتظاهر بالفزع وهو يحاول إمساك مؤخرتى ، ولم أدر بنفسى إلا وأنا أجرى وراءه ، وقد ملأ صراخى المكان وقهقهات صاخبة لرجال دوت فى المكان وهم يرموننى بالجنون وأنا مازلت أركض وراء الرجل حتى داهمتنى نوبة من القىء بقرب شباب يلهون وهم يترنحون وقد طوقتهم حمى من الضحك الهستيرى ، ولا أعلم لماذا تذكرت ذلك الرجل الذى حاول اغتصابى وأنا طفلة وسط حظيرة نتنة للخراف ؟ ، غرقت فى نوبة من البكاء لم أفق منها إلا على صوت أحد رجال الشرطة ، وهو ينادينى : عايزة حاجة يا ست ؟

وظللت أجرى حتى كورنيش النيل باحثة عن وجه آمن ، فلا أعلم

لماذا اتجهت صوب النيل ، وهناك عند نزلة حديقة الأندلس رأيت إيف صديقى الفرنسى ، والذى يعمل مخرجًا لبرامج أطفال الجالية الفرنسية .. كان يقف صوب النيل بوجهه الحالم المعذب ، وقد انسدلت جدائله الشقراء الناعمة فوق نصف وجهه الوردى المفعم بخجل العذارى وإلى جواره بدوى الشاعر النازح من صعيد مصر ، وكان الهواء يلفحنى فألملم جسدى بيدى واهمة بأن آخر معى .. لكن وحشة برودة الشتاء الأولى جعلتنى أرغب فى الاقتراب من إيف ، مرآتى الصادقة فى هذا العالم .. فاجأنى إيف بنظرة محبة بها كل المعانى التى جعلتنى أتظاهر بأننى لم أره وهو فى ذروة عشقه وولعه لبدوى ، وجلست بالضفة الأخرى للنيل وقد اقتربت من نخيل النهر لأشعر بالونس وألملم شتات اضطرابى .. كل هذا الصفاء والود بعينى إيف فى تلك اللحظة ، كل هذا الانسحاب الملح من تلك الحياة القبيحة بقوانينها الزائفة .. لقد أطاح إيف بها فى تلك اللحظة وهو ينظر إلى بدوى بكل الأرض ومن عليها ، لقد أطاح بجغرافية العالم ومقدساته وقوانينه ، وكأنه صنع فى تلك اللحظة أول علاقة حب حقيقية منذ بدأ الخليقة.

- كل ذلك الفرح يا إيف ، وكل تلك البراءة التى تملأ وجهك .. من أين أتى هذا السلام الفريد الذى يلفك ؟

- ماسر هذا الالتحام القوى والحقيقى مع الآخر ؟ ومن الآخر فتى من صعيد مصر يسكن بأحد حوارى شبرا .

تذكرت إيف منذ أيام وهو يخرج لى من حقيبته بعض الصور التى التقطها من الريف المصرى ، وكنا نتحدث عن معنى المثقف الحقيقى .. عندها أخرج تلك الصور ، وقال لى وهو يربت على يدى بحنان : هذا هو المثقف الحقيقى ، وكانت لفلاح يجلس يتناول خبزه البسيط بين الحقول الخضراء الرحبة.

* * *

لكل نفس أسرارها ... لا أعلم حتى الآن لماذا كنت أبالغ بالاهتمام بإيف؟ ولا أدرى ما سر تلك المسئولية المفعمة بعطف حقيقى تجاهه ؟

هل من أجل هذا الوجه البرىء والمفعم بالسلام والحب والصدق فى آن واحد .. أم أننى كفرت بقوانين تلك الحياة ؟

ظللت واقفة وحدى بقرب ضفة النيل ، وبدأت دقات قلبى تهدأ ، وبرغم هذا المشهد العامر بالحب لإيف وبدوى ، والتى تحنو عليه أغصان النخيل وتباركه مياه النيل .. لكننى شعرت بالغربة والوحدة ، وحاولت أن أتذكر محمود لعل صوته يشعرنى بشىء من الأمان ، لكن وجه المتآمر ونظراته المبهمة من أثر براعة الصنعة لاحترافه الكذب كبقية رجال الشرق عندما يرمون بشباكهم تجاه من يرغبون من النساء .. دعم نفورى من الرجال فى تلك اللحظة وازددت استغراقًا لذلك المشهد ، وكان بدوى يجلس فوق الصور ممتلئًا بتلك المعانى التى ملأت وجه إيف ،

وكانت عيونهما تفيض بحنو سامٍ مفعم بالبراءة قلت :

- إذن هذا هو الحب.

وتمنيت أن أجد أحداً فى هذا العالم يمنحنى تلك النظرات ، وفررت بعيداً عنهما وأنا أشعر بالضياع حتى وصلت إلى جريدة الصباح لأرى محمود برغم توجسى ، ومرّت دقائق وكنت بداخل سيارته ، وقد قرر أن يجوب شوارع القاهرة ، فغفوت بجانبه وصوت أذير الموتور استدعى ذكريات قديمة جعلتنى أشعر بالأمان الزائف ولو دقائق قليلة ، وكانت الذكرى ترخى أوصالى وتبطئ من دقات قلبى المضطرب ومحمود يرمقنى وقد امتلأت عيناه بآثام مقبلة ، وبرغم نواياه الخبيثة كان بالنسبة لى - فى تلك اللحظة - وأنا بداخل عربته والشوارع تفيض بالخطر والاضطراب .. أمن وحصن ، وخاصة ملامحه الشبيهة لوجه أبى بعينيه الحزينتين ، واسترخيت بالمقعد وقلت :

نوايا هذا الرجل الآثمة مقابل استخدامى له كأب رغماً عنه أو عبر خيالى ، وارتحت لتلك الصفقة ، وعلى الفور بدأت أتآمر على نفسى لخداعها ، ورحت فى غفلة شبه آمنة.

. *

كلما تهادت العربة أشعر بأننى أفقد براءتى شيئًا فشيئًا ، وعندما

دلفت ناحية ميدان التحرير شعرت من جديد بالخوف ، وعندها داهمتنى يده وهي تنقض على يدى وقد فر مسرعًا في اتجاه آخر.

داخل المطعم كان صوته هادئًا حنونًا منحنى ثقة في العالم ، .. يتحدث بمنطق الكاتب السياسى .. حديث منظم وتلغرافى ، ويحاول أن يرسل إلىَّ إشارات تأتي كالومضات الهادئة يستشف بها موافقتى بصفقته الداعرة وهو يعاتبنى على هروبى وخوفى منه وقد امتلأ صوته بصدق ولوعة الفقد.

– فسألته عن زوجته ، قال في أسى :

– لو أطول أن أصنع لها تمثالاً من الذهب لفعلت .. فقد تحملتني طويلاً .

– لا أعرف لماذا سألته : هل ما زلت تضاجعها ؟

– قال : إحنا كبرنا .

– قلت : أنت ما زلت صغيراً على هذا الحديث .

– قال : وهو خجل ، وكان ينظر إلى دخان سيجارته المشتعلة وهو يتلوى بنعومة كحية سامة :

أحيانًا الإحباطات والضغوط اليومية تصيب الرجل ، ثم راح في صمت مطبق طويل ، وقد امتلأت عيناه بالدموع ، فرق قلبى له ، ثم استرسل :

– بعض أنواع العجز الجنسى نَفسّى وممكن علاجه .

– قلت وقد أمسكت بيده :

– لو عظم فى قفة يامحمود أنا عايزاك فى حياتى على طول .

جاء الجرسون بالطعام فأقبلنا عليه بشهية ، واعترف كل منا للآخر بأنه لم يأكل مثل هذا اليوم.

وغفوت فى ذلك المساء دون أن تباغتنى تلك الكوابيس ، وفى الصباح طلبنى عبر الهاتف وعرض علىَّ العمل من جديد فقبلت بصدر رحب وقد امتلأ قلبى بحب حقيقى له ، وطلبت أمى وقلت لها بأننى أعرف رجلاً يشبه أبى كثيراً ، وأعمل معه ، صمتت أمى لحظات ، ثم قالت :

– خذى بالك من نفسك .

وضعت السماعة وأنا أشعر بضيق عامر وإحساس بالتآمر على أمى وعلى نفسى ، وجاهدت أن أهرب من تلك المشاعر ومحاولة نسيانها.

وفى المساء ذهبت إلى وسط البلد ، ورأيت إيف يسير منتشيًا بوجهه الهادئ الحانى ، وعندما رآنى قال :

– تعال أوريكِ شوارع حقيقى فى وسط بلد .

وزادت لكنته المكسرة سوءاً ، وقال :

– بش تشوفى فى حياتك غير مع أنا ..

قلت وأنا أضحك على عربيته المكسرة :

- أنا مــعــزومــة على عــرض مــســرحى .. إيه رأيك تطلب بدوى والمجموعة ونروح كلنا ؟

جاء بدوى يهلل فى وجهينا كعادته فيغمرنا الفرح وهو يصافحنا وقد رمى إلىّ ببيت من أشعاره ثم ببيت آخر لإيف وهو يعانقه ويضع ذراعه فوق كتفه بقوة ، أثناء ذهابنا إلى المسرح كان بدوى منتشيًا بالغناء وإيف يضحك ملء قلبه ، ويحاول أن يغنى مثله .. لكن لغته المكسرة للعربية لم تسعفه فيسترسل فى أغنيات فرنسية وهو ينظر إلينا بحب ، ويشرد بعيداً وهو يرقب المبانى القديمة بعبقها الذى يسحره فيتمايل يمينًا ويساراً وهو يدندن بنشوة عارمة.

* * *

عند خروجنا من المسرح .. تشبث إيف بذراعى وهو يتجة إلى أزقة عتيقة متعرجة بوسط البلد ، وقال وهو يبتسم :

شفت شوارع دى قبل كده

- قلت : لا ، لم أر تلك المبانى الرائعة من قبل.

وتذكرت على الفور بيتنا بحى الحسين برحابته وتماثيله التى تزينه كنساء حسان أطللن من شرفاته متباهين بالحسن الدائم ، والتى تتفرد به تلك التماثيل عن البشر فى دوام الحسن والشباب .

وجلسنا بمقهى بديع بشارع عماد الدين ، وأسرع إيف يفتش بحقيبته عن شيء ، ثم ناولنى صوراً قد التقطها بقرية بدوى ، وهو يقول ، وكأنه قد قبض على الحقيقة :

- بص هذا فلاح قعد فوق أخضر .. مثقف حقيقة ، وليس شكسبيراً فى مسرح اليوم ، وكان بدوى يقهقه وهو يرمى بنظرات غزل إلى إيف ، وقال :

- هكتب عنك قصيدة يابن الكلب وهشتمك فيها .. أنت جاى تلخبطنا .

- قلت لبدوى وأنا يملؤنى الغضب :

لماذا تهين إيف ؟

ضحك إيف وقال : أنا أحب لما بيقول كيدا .. أنا أحب بدوى كيدا .

وكانت عيونهما فى تلك اللحظة برغم سب بدوى لإيف قد امتلأت بالحب والعرفان وكل منهما ينظر إلى الآخر :

شعرنا بالجوع فأخرج إيف من حقيبته خبزاً أسمر وجبناً ..

- وقال : أنا آكل بس ده .

وقال بدوى وهو يلتهم سندوتشات اللحمة :

- إحنا فقرا مكناش بنطبخ غير مرة فى الأسبوع .. عشان كيدا بنعز اللحمة .. عارف لوجيت بلدنا تانى بوشك ده وعنيك دول هيعملوك شاورمة يابن الكلب.

* * *

اتصل بى محمود فى الصباح يدعونى للخروج فى نزهة وهو يسترسل فى إغوائى بعبارات حنونة :

: خسارة إنسانة زيك نادرة مليئة بكل تلك الهموم والحزن .. يارب أقدر أخفف عنك .

– قلت فى نفسى وهو مازال على الهاتف :

– حلوة نوع المصيدة دى .

– فسألنى ثم داهمنى صمت هادئ : لماذا الصمت ؟

– قلت : أنا موافقة هنروح فين ؟

– قال وهو يتظاهر بالتراجع : لو مكنتيش عايزة تشوفينى .. بس لازم تشوفى الرسم .

– قلت وأنا أضحك : أى رسم ؟

– قال بثقة وبجدية مفتعلة : رسم قصتك .. وقوليلى رأيك فى الرسام .

– قلت : يا ترى كل إللى بيكتبوا عندك بتأخذ رأيهم فى رسم قصصهم ؟

لم يرد وسألنى : مسأليتش هتأخذى كام ؟

قلت له : الكتّاب فى هذه البلد مش ممكن يعيشوا من الكتابة ، إحنا بنكتب عشان منأدرشى نبطل كتابة ، نموت ، وبينى وبينك .. محبش أعمل حاجة غير الكتابة.. أقصد العمل .

وفى المساء جلسنا بالمقطم لكى لايرانا أحد فتلك كانت رغبته ، وفى الكازينو المطل على الكورنيش لم أشعر بنفسى إلا وأنا أخلع إحدى قدمى محمود من الحذاء والجورب ، ولم أفق إلا على صوته وهو ينبهنى :

– عارفة إنتى ماسكة رجلى بقالك أد إيه ؟

– قلت وأنا أشعر بالخجل : أنا آسفة .. بعد المساج صوابعك ارتاحت ؟

– قال وهو يتأملنى : أنتى إنسانة غريبة جداً بس جميلة يا بخت الرجل اللى هيفوز بيكى.

لا أعرف كم مرة ردد جملته الأخيرة ؛ فقد كنت شاردة مع طيف أبى وهو فى أيامه الأخيرة ، وصوت ندائه لى كى أمسك بيدى قدميه ، فكان لا يعرف النوم أبداً من شدة آلامهما .

وفى العربة عند رجوعنا حاول محمود أن يقبلنى ، بل أكثر من ذلك ، وكانت صورة أمى تباغتنى وهى قابعة فى الركن وحيدة بعد رحيل أبى ، وذلك المشهد القديم وهى ساهمة حزينة مهانة من وطأه الهجر وأبى فى ذلك الركن البعيد مستغرق فى تأملاته .. تلك المشاهد التى تحفر ذاكرتى جعلتنى فى تلك اللحظة من فرط مرارتها أغوص بصدر محمود فتداهمنى صورة زوجى فى الماضى وهو يتحرش بى وأنا فى ذروة حزنى على أبى فأشعر بالتقيؤ وأنا بجانب محمود فأدفعه عنى وقد امتلأت عيناه بالحزن مثل أبى تماماً فأرق من أجله وأطوقه بذراعى ،

وأرمى برأسى الهارب مع الذكريات فوق صدر محمود وهو يقود العربة ، بصمت مطبق ، يشعرنى بالجرم تجاهه وتجاه أبى وأمى فى آن واحد فتنهمر دموعى وقد مسح محمود فوق شعرى فتسحبنى نشوة فأغفو قليلاً وقد امتلأت العربة برائحة قبلات أبى التى تشبه رائحتها البلح الأمهات.

* * *

كنت أكره أحيانًا الذهاب إلى أمى ؛ لأنها تتحدث معى دائمًا عن الزواج ، وتنقل إلىَّ خوفها الدائم من أن يكون مصيرى مثلها وحيده بين أربعة جدران لا أفعل شيئًا سوى أن أجتر الذكريات. وبرغم ذلك فوحدتها الدائمة زادت من القرب بينى وبينها ، وكنا نتحدث طويلاً عبر الهاتف واكتشفت عبر علاقتى الجديدة بأمى أننى كنت لا أعرفها ، وعندما تحاول هى التقرب منى تقول لى بحب :

إنتى عارفة أكثر واحدة من أخواتك شبه لأبيك .. أنت ، فأقبلها وأجرى إلى المطبخ أصنع لها حلوى كتلك التى يختص بصنعها أبى وحده ، وكنت أنا الوحيدة من أخواتى التى أطهوها ، وأثناء التهامنا لها تجىء ريح قديمة عطرة تلف البيت فتأنس أمى وكأن أبى سوف يقرع الباب بعد قليل آتيا من العمل يغرقنا بالقبلات .. لكن الونس الذى تبعثه فينا الذكريات يتسرب سريعًا فأدعى اللهو والمرح أمامها كما كانت هالة

العزيزة تفعل مع أمها ، فنعيش أنا وأمى .. هالة من الفرح الكاذب والذى لا يخلو من الحقيقة فتنظر إلىّ بحب وعرفان وقد تخدر جسدها واكتسى وجهها بنعاس خفيف لا يخلو من سعادة ، وقبل أن أتركها أجرى إلى الهاتف أكلم محمود ، وأبلغه أننى آتية إليه ومعى حلوى لم يذقها فى حياته.

وفى عربته كنت أطعمه بيدى كما كنت أطعم أبى أثناء مرضه فينظر محمود إلىّ بزهو وكأنه انتصر على العالم وعلى عجزه خاصة.

* * *

مرت شهور كثيرة وقد تعلق كل منا بالآخر وكدنا لانفترق أبداً ، ورغم الآثام التى تملأنا .. كنت أشعر مع استمرارها بالتطهر .. لكن محمود ازداد عذابه وشعوره بالغيرة تجاه كل رجل يقترب منى .. حتى تبدلت هواجسه إلى شك يؤرق مخدعه ، ويجعله ثائراً لا يهدأ أبداً ، وعند لقائه بى تشتعل النيران بقلبه وجسده فيداهمنى بالقبلات والتحرش بى دون جدوى لإطفاء نيرانه أبداً فيزداد غضباً واشتعالاً ، ويرمينى بالاتهامات ليست تجاهى فقط ، بل تجاه كل نساء العالم برغم عينيه الزائغتين صوب أجسادهن ومؤخراتهن وهن يسرن بالشارع أو بالجريدة ولا يشعر بالحياء أبداً .. بل يملؤه الفرح والزهو .. فتداهمنى الغيرة والشك مثله تماماً ، ويكون لقاؤنا نيران مشتعلة لا تهدأ جذوتها أبداً رغم العناق الطويل بقبلاته الوحشية ، وكنت أعتقد بأن محمود

يشعر بالسعادة عندما تشتعل الغيرة بقلبى .. لكننى مع الأيام عرفت بأن رغبته الدائمة في جذب النساء حوله رغبة حقيقية ، وليست لإغاظتى فقط ، وتزداد رغبته في القنص عندما تكون المرأة التى يرغبها زوجة لأحد أصدقائه فيزداد هوسه فى استفزاز فحولته ، وهو الذى تعذب بفقدانها سنين طويلة ، كانت تلك الحقائق تعذبنى فأهرب منه أيامًا وشهوراً وأنا لا يفارقنى الألم وحنين شجى غائر بقلبى أعمق من حبى له ، لكنه يضاهى رغبتى بالقرب من نيرانه التى لاتهدأ أبداً.

تحدثت إلى صديق ، وكان بمثابة أستاذ لى عن علاقتى بمحمود ، قال وهو يبتسم :

– هل تعلمى أنه دنجوانًا عاجزًا جنسيًا ، وكلما جمع النساء حوله شعر بالانتصار.

فهؤلاء النساء هن اللواتى يشعر معهن بالعار داخل الفراش ، لذلك يعذبهن.

ونصحنى أستاذى أن أترك محمود ورغباته التدميرية تجاه النساء ، وبعد أيام عاود محمود الاتصال بى وتقابلنا ، وأقسمت له فى هذا اليوم بأننى أحبه حبًا مطلقًا بغير هدف.

– وقال لى فى لحظة صدق : لإمتا هتفضلى تعطى دون أن تأخذى شيئًا .

– قلت : أنا فى منتهى السعادة .

وبكينا ، مرت علينا أيام صافية ردت إلىّ بعضًا من السكينة التى

فقدتها أثناء ابتعادى عنه ، حتي جاءني صوته عبر الهاتف :

- أنا عايز أبلغك حاجة : أنا مش هقدر أخليكى تكتبى عندى مرة أخرى .

- وتهاويت فوق المقعد وأنا أردد :

- ليه .. ليه بتعمل كده .. عايز تثبت إيه .. ضميرك فين ، إنت عارف إنى محتاجة النقود اللى باخدها من المجلة .

- قال : عشان تبقى العلاقة من غير مصالح .

- قلت وأنا أتلعثم من فرط الغضب :

مصالح إيه .. لو أنا بتاعة مصالح مش هعرفك ، إنت عارف الستات بتوع المصالح عيشين إزاى ، إنت أعمى .. مش شايف اللى بيحصل حواليك.

أنهيت الحديث وأنا أشعر بالإشفاق تجاه نفسى وتجاه هذا الرجل الذى يتعذب بحبى الكبير تجاهه ، مرت أيام وأنا لاأبرح فراشى .. ضائعة، مهزومة يغرقنى الخوف ، وكنت فى أكثر الليالى لاأبرح غرفتى أبداً ، وكأن باقى أرجاء البيت تتنفس خطراً ما ، يتربص بى ، لا أعلم هويته ، لكنه يجعلنى أشعر بغصه ومرارة لتلك المشاعر القديمة عندما كنت أذهب إلى منزلنا الكبير فى ليالى الشتاء الباردة من أجل نقود أو طعام تجود به أمى من أجل أبنائى ..ذلك الإحساس بالضعف والفقر وأنا أهرول

وأفـر هاربة من نظرات أمـى التى لا تسـتطيع أن تـوارى مـابهـا مـن شـفقـة وحزن على وعلـى مصـيرى الذى أصر عليه ، والتمسك به٠٠ تلك الغصـة التى تأتى مع الإحسـاس بالخزى والمهانـة ، وذلك الخوف الذى يطاردنى عند رجوعى من بيت أمى وأنا أتخبط بـأسـفلت الشـارع هاربة من الرجال بعرباتهم الفارهة والمنحطة ، والتى تتربص بالنساء الوحيدات دون خجل أو رحمة ٠

* * *

يقـولون إن الضـربـات التى لا تكسـر الظهـر تقـويه ٠٠مـاذا يحصـد القـوى بجـروحـه غـيـر الآلام .. تلك الآلام التى تفـرز مع كل صـيـحـاتـهـا والتظاهر بالقوة طوال الوقت ٠

كنت على هـذا الحـال أمـام أبنائى وكل من حولى .. التـبـاهى بالقوة حـتى أصبـحت أهم عـاداتى المفـضلة لدى عندمـا يخلو البـيت من حـولى وأكـون وحـيـدة هو البكاء الحـار وبصـوت تتـصـدع له أذناى ،وشـهـقـات ترتعش لها أوصـالى .. ولا أتوقف إلا وقد هدأت نفسـى ، وسكنت روحى داخل جروحها المخبأة ٠

قلت هذا المبلغ الضـئيل الذى كنت أتقـاضـاه من مـجلة مـحـمـود لم يكفنى أنا وأبنائى سـوى بضـع أيام خـلال الشـهـر .. فـمـا مـبـرر هذه التعاسة التى أشعر بها وهذا الشعور العميق بالفقد ٠٠ما الذى أربكنى

إلى هذا الحد ؟ ظللت حتى الصباح يقظة ثم غفوت بعدما عرفت سر عذابى وتعاستى .. ليس النقود وحدها ، بل اكتشافى بأن محمود لا يحبنى ولم يحبنى أبداً .. لو أحبنى لما وضعنى فى هذا الاختبار وهو يعرف جيداً احتياجى للنقود برغم شحها .

وعرفت من تلك الحادثة بأن محمود لا يعرف الرحمة ولا يستطيع أن يحب أحداً إلا ذاته ، والتى تؤرقه دومًا .. لذلك قررت أن أتركه ليس من أجل النقود ، بل لأنه خذلنى ، ولم يعرفنى جيداً .

مرت أيام وقد هدأت نفسي وقلت لو تخليت عن محمود لتساويت بالغانيات. وفى الصباح طلبته عبر الهاتف فجن جنونه من فرط الفرح وخرجنا معًا لزيارة صديقة لى تعمل بالإخراج فقد كانت مريضة . وفى اليوم التالى ذهبت إلى تلك الصديقة لمرضها والاطمئنان عليها ، وكنت أجلس معها بحجرة نومها عندما رن جرس الهاتف ، وعندما رفعت السماعة كان على الخط الآخر صوت محمود يملؤه الاضطراب وعندما فاجأه صوتى تحشرج صوته ، عرفت من تلك الصديقة فيما بعد بأنه أهداها باقة من الزهور فى صباح ذلك اليوم أيضًا .

تركت صديقتى وأنا أبكى وهى تنادى من نافذة بيتها كى أتوقف ، وعندما وصلت منزلى عرفت منها عبر الهاتف بأنها المرة الثالثة التى طلبها محمود فى ذلك الصباح وقد دعاها للخروج معه ولم تقبل على حد قولها .

* * *

ومرت أيام وأنا حبيسة الفراش واتصل بى إيف لملاقاته ، وعندما رأيته كان يتهلل فرحًا وكتابى فى يده وهو يقول : أنت كاتبة عظيمة.

- قلت : لكن فى قمة التعاسة.

وقبل أن أنهى جملتى .. ارتميت فوق صدره وقد فرت دموعى رغمًا عنى ، ثم داهمنا بدوى وطوقنا بذراعيه وهو يضحك ، واتجهنا إلى طلعت حرب ، وأثناء سيرنا كان بدوى يغنى لطلب :

- فيك سارى ياليل حبيب مجهول بيدور على حبيب .

* * *

مر عام على فراقنا أنا ومحمود ، وبرغم يقينى الواعى بأنه لايشبه أبى أبداً ولم يحبنى فى يوم من الأيام ، بل استغل مشاعرى تجاه أبى الراحل وإحساسى العظيم بالذنب .. قابلت محمود فى ذلك اليوم ، وكنت أنا وهو بمكان قصى بضواحى القاهرة ، وطلب منى أثناء عناقنا أن أناديه بابا ، وكنت فى ذروة النشوة بعذوبتها الحانية ، وكأننى غافية فوق ذراع أبى ، وقد اختلطت تلك النشوة البريئة بشهوة جامحة تجاه محمود وكأنه الوحيد فى هذا العالم ، فلم أبرأ من عشقى تمامًا ، وتفجرت بداخلى أمومة من وطأة تلك الشهوة ، فملأتنى براءة من جديد ، فأخذت أهدهد محمود ، وأمسح بأناملى المحمومة فوق شعره ، وكأنه

طفلى الوحيد ، وتمنيت لو أن تلك الأمومة التى تفجرت بداخلى أن يحظى بها أبى فى يوم من الأيام .

أربكنى تحولى السريع والمختلف فى تلك اللحظات ، فبدا جسدى كله ينتفض من فرط التحول حتى كدت أترنح ، وكأن البراكين التى انبعثت من مشاعرى المتضاربة حملت بداخل شرايينها كل دمى الساخن ، فأنهكنى الإعياء ، وتمنيت أن أرتمى فوق صدر أمى وكأننى طفلة تلهو بين أبيها وأمها ورجلها الذى ينتظر مرور الأيام لتكبر فتاته ويحظى بها .. تلك المشاعر المشتعلة والقريبة جداً لدرجة التوحد تفرقت ، وفرت عنى بعيداً بعد أن ردد محمود للمرة الثانية :

– قولى يابابا .

فى تلك اللحظة .. شممت رائحة عرقة الحقيقية والنتنة وكأنها لكلاف يعيش بين الذرائب يعتاد مضاجعة البهائم والإبل ، وعندما يجوع يأكل لحمها باشتهاء وتلذذ .

ومنذ هذا اليوم سقط محمود ، لكنه ظل داخل حفرة غائرة بداخلى تؤرقنى وأؤرقها عند مداهمة الحنين فأهفو لأوهامى التى أبدعتها روحى الممزقة لأعيش فى الماضى ، ولكى أتطهر من إحساسى الدائم بأننى تخليت عن أبى .. لذلك لم يمت محمود تماماً بداخلى بل ظل طيفه يطاردنى طويلاً ، ولم أعلم حتى الآن هل أحببته حقاً ؟ ولكن الذى أعرفه جيداً وأثق به .. بأن وجوده فى هذا العالم يبعث حولى حالة من الونس

هى التى تخمد نار ذكرياتى مع أبى عندما تهف ريحها بأساها .. لذلك لم أتخلص منه تمامًا لرغبتى الدائمة للحفاظ على الباقى من رصيدى الآمن لعلى فى يوم من الأيام أحتاج إليه أفضل من مكوثى وحيدة وخاوية بقية عمرى كأمى أترقب ساعة الموت لألتقى بالحبيب المفقود.

* * *

« ومن الشوق رسول بيننا ونديم قدم الكاس لنا »

كنا أنا وإيف وبدوى نسمع بقهوة قديمة تلك الكلمات وكل منا له خليله فى الهوى ، والهواء ينشغل بنا فيرسل إلينا نسماته التى تطربنا وهى تمر حانية فوق وجوهنا المرتاحة فى تلك اللحظة فنزفر ونشهق وكأنها أول نسمات هواء لهذا الكون ، وصوت ثومة يشجينا فنتمايل بنشوة تغمرنا وكأننا سكارى ، وحين نسترد وعينا نقول :

: الله الله

وأنظر إليهما وأنا شبه مخدرة يسحبنى ذلك الخدر إلى منزلنا وأنا أتهادى عبر الفسحة الكبيرة لبيتنا الشاسع الاتساع وقد تشبع جسدى ببخار الحموم العطر ، وقد ثقل بتراخى فأسير أجرجره وهو لايزال يقطر منه الماء لألحق بهرج الاحتفاء بحفلة ثومة وأبى وأمى يجلسان يتمايلان فأفر إليهما لأخذ نصيبى من نشوتهما قبل أن تضيع .

- يقول إيف : يا سلام على الحب ..

- قلت : أنا عايزة أرجعله حالاً ياإيف

- قال بدوى : اللى عايز حاجة يعملها .. قبل مانموت

* * *

جاء شم النسيم ، وفاجأته على الهاتف.

- قال : إنتى عارفة صوتك ده .. أهم أمنياتى فى العالم.

وفى المساء خرجنا معًا ، وفى الكازينو جلس أمامى .. يرمقنى بفضول وكأنه يبحث عن شىء لا أعرفه.

- سألته : لماذا تنظر إلىّ هكذا ؟

- قال : بغير عليكى .. بموت من الغيرة .. ممكن تتحجبى ؟

- قلت : أنا أُصلى فعلاً .. لكن الحجاب مسألة ثانية .

- قال : موحشتكيش ؟

- قلت : طبعًا .. بص يا محمود لو كان الشك يعذبك .. أنا عايزة اتجوزك فى أوضه فوق السطوح ومش عايزة منك أى حاجة غير وجودك جنبى .. إيه رأيك يامحمود ؟

ظل ينظر على الأرض بإمعان ، وكأن صاعقة من السماء قد حطت فوق رأسه ، ثم قال :

- أنا لست مؤمنًا بالزوجة الثانية .

- قلت وقد انتاب جسدى رجفات سريعة رغم سخونة الهواء :

- أمَّال مؤمن بالحرام معايا .. أد إيه إنت حقير وانتهازى ومزيف .

وفررت من أمـامه ، ولم أستطع أن أمسك دموعى حتى وصلت إلى باب بيتى ، وكان محمود يقف بعربته أمام البناية ، وعندما رأيته أسرعت إلى المصعد بقلب مزقته المهانة ، فأصر على النسيان حتى لو اضطررت للزواج سريعًا ، وظننت بأننى برئت من أوهامى ، ولأول مرة أشعر بالضيق ، وربما الكفر من حبى لأبى وحبه لنا .

الفصل السابع
الأشياء الحقيقية ليس لها بريق

لم أعرف بأن المسرات تفر سريعًا واحدة تلو الأخرى بذلك الخداع المدبر والمتواطئ فيما بينها وكأنها تخلى الطريق إلينا بعد أن منت علينا .. ملولة لا تطيق المكوث بمكان واحد ، وبرغم مداعبتك لها وإفراز كل أدواتك لتسليتها ، واهمًا بأنك تعرقل هروبها تشعرك بالمن عليك ، وتملؤك لوعة الخوف من فقدها فتنهار مقاومتك فتنسحب منك شيئًا فشيئًا ، باحثة عن روح أخرى لم تهزم بعد تلك السعادة كرجل تافه لا يهوى غير المرأة العفية ... وتداهمك التعاسة وبعد أن تبتلعك تسلم نفسك لها وقد خارت قواك وأضناك الهجر وملأتك الحسرة بعد أن ابتلعتك هى الأخرى واعتصرتك لتعرف الدهشة من جديد بل المرور عبر شرايينك من أجل الحياة وتستمر دماؤك فى الجريان .. تلك الدماء التى لا تعبأ أبدًا ولا يعنيها التعاسة أو السعادة بل المرور عبر شرايينك إلى الحياة .

* * *

بعد رحيل أبى انضم إلينا شقاء آخر ، وهو تركنا للبيت الكبير ، والذى أرغمت أمى وأخواتى لإخلائه .. بيت الذكريات والونس ورائحة أبى ولمتنا ، فمرضت أمى بمجرد خروجها من عتبته وهى تعرف جيداً بأن نهايتها فى تلك الحياة اقتربت ككل الكبار عند انتقالهم لمسكن آخر جديد لا يحمل ذكرياتهم ، وبمجرد دخولهم إلى العالم الجديد يداهمهم ذلك الهاجس والذى تنتفض له نفوسهم ويرددون فى صمت :

- سوف نموت هنا .

ويظل الموت أمامهم لعلمهم جيداً بأن أيامهم لابد أن تكون قليلة فى هذا المكان الجديد ، ولأن الجزء الكبير من حياتهم ولَّى .. أما الباقى أيام أخيرة .

عاشت أمى بعض سنوات بالمسكن الجديد وكل يوم يمر عليها يشعرها بالفقد الذى يتصاعد مع فرار الأيام .. فقرينى منها غربتها وحزنى على محمود ، والذى نزع منى أحلامى وأصبحت لا أفعل شيئًا سوى القيام بالواجبات التى مفروض علىَّ القيام بها وكأننى مخدرة .. ليس ذلك الخدر اللذيذ .. لكنه الخدر الذى يسبق الموت فى ساعاته الأولى ، أكثرت من زياراتى لأمى فهى الرائحة الوحيدة والمتبقية من أبى وعندما أجلس وأتأملها بعد أن يفر منا الكلام أشفق عليها وعلىَّ نفسى وأترك بيتها وأنا ممتلئة بالمخاوف من الغد والمستقبل :

لو رحلت ما الذى يبقى لى من الماضى العزيز ؟

.. من التاريخ ، وكأننى سوف أساق إلى المستقبل عارية تمامًا .. حافية القدمين لا أثق فى أحد ولا أرغب فى أحد .. تتقازفنى الرياح التى لا تسكن أبدًا .

***

أفقت على دقات مدوية فوق باب بيتى .. فداهمتنى وجوه لا أعرفها بينهم رجال من الشرطة ممسكين بدفتر بداخله أوراق وعندما قرأها أحدهم عرفت بأنه أمر لإخلاء الشقة التى أسكن بها أنا وأطفالى ، وكان صاحب الشقة يقذفنى بكلمات لشدة وقعها علّى لا أذكر منها سوى القليل ، وكل من معه يجامله ويكمل له ما يتحشرج بداخل فمه من شدة الانفعال والغضب .. حتى حارس العمارة الطيب العجوز الذى كنت فى ليالٍ كثيرة أجلس بجانبه فوق الكنبة المتداعية أمام غرفته الصغيرة .. نحتسى الشاى وهو يبوح لى بهمومه ... كان هو الآخر يقف معهم أمام باب بيتى وقد بدا عليه القهر الآتى من التبعية للأسياد ، يردد مثلهم الإيجار المتأخر ثم يصمت ، ليفسح المجال لسيده صاحب العمارة ليتكلم وهو يردد بطلب الإخلاء الذى لا أعلم عنه شيئًا إلا فى تلك اللحظة. وكان يقف بين تلك الوجوه المتآمرة وجه نبيل ينظر إليا من الحين والآخر بخجل وإشفاق ، وعندما شردت مع نظراته تذكرت على الفور هذا الرجل ، وأين رأيته ؛ فهو ذلك الرجل الذى يقف لبناء العمارة المجاورة لنا وفى مرات كثيرة يلمحنى ، ثم يغض النظر بحياء وكنت أفرح كثيراً لخجله

ودماثة خلقه ، وأصعد الدرج وأنا أشعر ببعض الطمأنينة.

- وأقول بفرح :

- ليس كل الرجال ذئاب.

لم أنم فى تلك الليلة ، فى الصباح سمعت دقات واهنة فوق بابى آتية من يد وجلة خجولة ، وعندما فتحت بحذر .. جاءنى صوته مرتعشاً معتذراً عن مداهمته لى ، وقال :

- هذه هى الطريقة الوحيدة المتاحة الآن.

- سألته بدهشة

- ماذا تريد ؟

- قال ، وهو ينظر إلى الأرض :

- يا هانم .. تقبلى هذا كسلفة ؟

- قلت وأنا أحاول إمساك دموعى ، لماذا ؟

- قال لأنك بنت ناس وست محترمة .. لو مكونتيش محترمة .. واحدة زيك وفى ظروفك ومستواك كان زمانها حاجة ثانية.

وانصرف بعد إقناعى له بإعطائه بعض الأشياء التى أملكها مقابل تلك النقود ، ومرت أيام ولم يحاول خلالها رؤيتى أو إزعاجى حتى جاء يومًا وكنت أعبر الشارع بوسط البلد ، ورأيته بداخل عربته ، وعندما

رآنى توقفت العربة ، وجاء ليصافحنى وقد أمر السائق أن يوصلنى إلى بيتى وهو يسرع مبتعداً بعد أن استقل سيارة أجرة ، حتى لا يسمح لى بالرفض وبداخل سيارته فكرت :

– ماذا يريد منى ذلك النبيل ؟ وهل هو كريم النفس حقًا ؟

* * *

مرت الأيام والشهور ، ولم يحاول إزعاجى رغم معرفته لرقم هاتفى ، لكنه كان يتصل خلال فترات متباعدة ، ليطمئن علينا. ومع الأيام أصبح (صلاح صبرى) جزءاً من سياق حياتى الآلية ، والتى فرّت منها السعادة وأصبح قلبى يهفو إليها ، رغم أوهامها. وعرفت فى أحد الأيام برغم نبل هذا الرجل ورغبته الدائمة لفعل الخير بأنه وقع فى غرامى ، وعرفت ذلك من تلك الحادثة وقد كان هاتف بيتى انقطعت عنه الحرارة لتأخر سداد الفاتورة ، فوجئت فى صباح اليوم التالى بصوت صلاح عبر الهاتف وقد ارتعش من فرط الفرح وكأنه طفل صغير قال :

– أنا مانمتش طول الليل

– ثم وهو خجل : إظاهر اتعودنا على صوتك .. الحمد لله التليفون اشتغل .

– سألته بدهشة : كيف ولماذا ؟

– قال : حاجة بسيطة .. أنا لسة جاى من السنترال .

وبرغم فرحى بالهاتف .. لكننى شعرت بالغضب عندما عرفت بأنه سدد بعض الآلاف لتلك الفاتورة اللعينة ، وشعرت بأن صلاح صبرى يطوقنى بنبله إلى حد الاختناق ، فى أحد الأيام قلت له عبر الهاتف:

– إيه اللى ممكن أقدمه لك مقابل تلك الخدمات أنا ست شريفة .. فاهم .

– قال وقد اختلج صوته :

– أنا آسف .. أنا طلبت منك حاجة يا هانم .. أنا كمان راجل شريف.

وانتهى الحديث بيننا وأنا أشعر بالخزى والعار لأننى لا أستطيع أن أرد رجلاً نبيلاً عن الاطمئنان علىَّ ، ولست قادرة لأقول له بأن لا يطلبنى أبدًا وغير قادرة أيضًا لإنهاء تلك العلاقة ، فشرطى لإنهائها سداد تلك الديون حتى لو قمت بسداد الدَّين لا أستطيع أن أمنع الشىء الوحيد الذى يسعد صلاح صبرى وهو حديثه معى عبر الهاتف .. تلك الأحاديث الوحيدة التى أمنحها له وتمنحه السعادة ، وبرغم عفته معى كنت أشعر بالدوار والاختناق بمجرد أن أسمع صوته .. ولم يشفع له نبله أبداً عندى .. ، تمنيت كثيراً أن أقع فى هوى هذا النبيل أو حتى أن أرغب فى رؤيته أو سماع صوته .. لكننى ازددت نفوراً منه ، ولم يشفع له عندى شرفه النادر والحقيقى ، وتمنيت أن يصبح محمود الذى يأخذ منى كل شىء ولم يمنحنى شيئًا أبدًا غير الحسرة والتعاسة أن تتبدل أخلاقه في يوم من الأيام ، لكنى كنت أعرف جيداً بأنه لن يتغير أبداً ،

ورغم دنائته وزيفه وزيفى ورغبتى الدائمة فى تبديل الحقائق وترويضها كى ترضينى .. تماديت كثيرًا فى لهوى وفرحى ربما حتى الآن :

- لماذا محمود دون باقى الرجال ؟

- ولمَ هو المطالب دائمًا بتمثيل دور الأب معى ؟

- ولمَ أكره صلاح صبرى رغم توافر صفات الأب الحقيقية بداخله ؟

- وهل أريد أن يقوم محمود بهذا الدور لرغبتى فيه رغم مرضه وكأنه الرجل الوحيد فى العالم ؟

- ولماذا الرجل والأب معًا ، وهل أبحث فعلاً عن أبى ، وإن كان ذلك حقيقيًا فلمَ أرغب بممارسة دور الأنثى مع محمود ؟ وما سر نجاح تلك اللعبة معه وفشل صلاح صبرى ؟

ألإنها لعبة ، وليست حقيقية ، ومحمود وهم ، وصلاح صبرى هو الحقيقة ؟

ربما بلغت غايتى بعد دخول صلاح حياتى .. لكن النفس غائرة وعميقة وتفوق إدراكنا وقوانيننا الساذجة ، والتى بدعناها بهدف التنظيم الذى يتناسب مع العقيدة لترويض الفطرة ، والتى كان الأسلاف ينعمون بها رغم بدائيتها ، ومع تتابع الأجيال تعددت النصوص بالمحرمات من أجل التنظيم وتهذيب الفطرة فغابت الحقيقة ، والغريب غياب الضمير أيضًا .

أيكون محمود هو غايتى الحقيقية دون تزييف أو تهذيب؟ وصلاح صبرى هو الواقع الذى صنعته الأجيال وميراثى المفروض علىَّ ، هو الأب المنزه والحقيقة الظاهرة والمصنوعة .. ربما ! .

* * *

اليوم عيد الأم .. اتصل بى صلاح صبرى ليسألنى ماذا أريد أن أشترى لأمى ؟

- أجبته بتعالٍ وضيق : لماذا تسألنى ؟

- قال : إنت زعلانة إنى بكلمك .. كل سنة وأنتِ طيبة هتجيبى إيه لماما ؟

- أجابته : زرع .. هجيب زرع لبيتنا الجديد.

وفى المساء عند خروجى من المشتل فاجأنى صلاح صبرى وهو يقود عربته بعد أن صرف السائق وقد داهمنى بوجهه الطيب والخجول ، وهو يحاول أن يضع الشتلات بالعربة دون أن ينبس بكلمة ، وشعرت بأنه يقتحم حياتى.

- قال : اعتبرينى سائقك الخاص امنحينى هذا الشرف.

وعند منزل أمى قال :

- أنا عاوز أتعرف على والدتك والعائلة.

- قلت بغضب : بأى صفة ؟

- قال : عايزها فى موضوع

ولأول مرة أكون بتلك القسوة وأنا أنظر إليه من قدميه حتى رأسه ، وقلت بغطرسة لم أعهدها فى نفسى:

- لما تعرف تلبس كويس .

- إيه اللى لابسه ده ، كل الألوان ؟

وانصرف صلاح بصمت وقد سيطر عليه حزن ملأنى بالخجل من نفسى ومن جحودى الزائف .

لماذا أعذب هذا الرجل النبيل ؟

وفى اليوم التالى طلبنى يخبرنى برغبته فى الزواج منى ، وقبل أن ينهى حديثه صفعت السماعة وأنا أشعر بالغثيان ، وكأن أبى أو أخى يريد أن يشاركنى الفراش ، وجريت أتقيأ ، وغفوت في تلك الليلة بعد بكاء طويل لا أعلم مبرراته .

وحلمت بمحمود يهدهدنى ثم يبكي بنشيج مكتوم ، وعندما حاولت أن أضمة إلىَّ .. طوقنى بذراعه وقد علا صوت بكائه ، ثم دفعنى عنه بقوة ، وعندما نظرت إليه كان النصف الأسفل من جسده مفقوداً . وقمت من غفلتى على صوت صراخى ، وقضيت اليوم بطوله أفكر فى

أبى وحرمانه من أمى ومحمود وحرمانه وحرمانى ، واستحالة أن يجمعنا فراش واحد.

* * *

أدركت بأننى لم أتخلص تمامًا من حبى لمحمود ، وكنت فى ليالٍ كثيرة أدير قرص الهاتف لسماع صوته ، وعندما يأتينى أضع السماعة على مهل وقد دبت بداخلى الحياة رغم فقدانى الرغبة فى رؤيته وفى أى رجل فأصبحت أشعر تجاه الرجال كأنهم مومياوات محنطة مسكونة بشهوة الحياة داخل أجساد تبدو خالدة وبعيدة عن التحلل والعفن .. لكنها توحى بروائح كريهة كرائحة العنابر فى مستشفى عام أو جلد آدمى قد احترق من وطأة الشهوة ، وأصبح صوت محمود هو الشىء النابض والحى فى ذلك العالم .. لذلك ظل صلاح صبرى بالنسبة لى كباقى الرجال .. يشعرنى بالموت والوحشة وكأن الحياة بكاملها مجرد سرداب ملىء بالأجساد المحنطة بتوابيتها الخالدة .. أترنح بداخله وحيدة .. تلتهمنى الغربة التى تعزلنى عن الحياه بكل توهجها ، وأصبح إلحاح صلاح صبرى بالزواج بى يزيدنى نفورًا وإصرارًا على الرفض.

- قال ذات مرة : خليكى تاجرة مثل النساء وتزوجينى وكل طلباتك أوامر ، سوف أكتب باسمك مصنعًا وشقة فى أحسن موقع .

- ضحكت وقلت : أنت مغفل إزاى إنسان محترم زيك أسرقه ؟

- قال وهو يضحك : أنا راضى .

- قلت : من غير ما أحبك

وطلبت منه أن لا يذكر أمر الزواج أمامى مرة ثانية وإلا لن يرانى أبداً ، عندها قال برقة تثير الإشفاق :

- ممكن مكنش مثقف ولا يعرف أزوّق الكلام مثل الذين حولك .. لكننى صادق وإحساسى بيكى أكثر شىء حقيقى فى حياتى .

وانقطعت عن صلاح صبرى أياماً حتى طلبنى يوماً وقال لى :

- أنا خائف ولم أنم ليالى طويلة.. أفكر فيك .. لو حدث لى شىء ماذا تفعلين؟

قلت بغضب : هل تقوم بإغرائى .. لن أتزوج بك أو بغيرك .

وفى المساء طلب أن يرانى لآخر مرة ، عندما قابلته أعطانى مفتاحاً وقال :

هذه مفاتيح لشقة تمليك اشتريتها من أجلنا أنا وأنت ، أعرف بأنك لن تتزوجينى فأرجوك أن تأخذيها وتنتقلى إليها فوراً ، سوف أحرر لك عقداً ، ولقد اشتريت بها بعض قطع الأثاث القديم المطعم بالصدف كما تحبين مثل أبيك .

- قلت له وقد فرت دموعى :

- لماذا تفعل كل هذا ؟

- قال : أنت مش عارفة قيمة نفسك .

فرت دموعى من وطأة ذلك النبل المفرط وهذا الثراء الروحى ، ومرت حياتى أمامى مسرعة بكل صخبها ومرارتها وأوهامها ، وشعرت بالضآلة أمام هذا الرجل ، بكى صلاح أمامى لأول مرة فهربت من العربة بعد أن ودعته ، لكننى أثناء سيرى نظرت ورائى ، ثم أسرعت إلية ثانيًا وأنا مشفقة عليه وعلى نفسى .

– قلت له : سوف أتزوجك يا صلاح .. بس إدينى فرصة أحبك : أنت أعظم إنسان فى الوجود .

وشعرت بأن صلاح صبرى سوف يرحل عن الحياة قريبًا ، وانقبض قلبى لهذا الهاجس ، فى الليل ذهبت إلى أمى ، وبمجرد دخولى وضعت المفتاح بيدها ، وعندما عرفت ما حدث قالت :

– هل وافقت على الزواج به ؟

– قلت : لا .. يوجد شىء أقوى منى ومنه ضد هذا الزواج وأى زواج من أى رجل .. لكننى أقدره وأحترمه .

قالت بغضب : ارجعى إليه المفتاح .. إيه اللى غيّرك يا سارة ؟ فين مبادئك ؟

وشردت وهى تسترسل فى غضبها وقلت لنفسى :

– ما الذى حدث لى هل هو الخوف من المستقبل والبحث عن الأمان المنشود؟

وفى اليوم التالى قابلت صلاح وأعطيته المفتاح وقلت له :

- حاول أن تنسى هذا الموضوع .

نظر إلىَّ بحزن ، ثم ناولنى ظرفًا مليئًا بالنقود والمقسمة إلى آلاف الجنيهات وأعطاها لى.

- قلت له : ماذا أفعل بها ؟ .. وضحكت بملء فمى برغم الحزن المسيطر على قلبى وغير المبرر ، وأنا أردد :

- إنت عايزنى استغلك ليه ؟

- قال : أنا راضى.

- قلت بغضب : ماذا تريد منى بالضبط ؟

أمسك بالمصحف الذى أمامه ووضعه فوق عينيه ، وأقسم بأنه لا ينام من الخوف علىّ لو رحل عن الحياة ، ماذا يحدث لى وكان يملك تلك القوة الروحية مثلى تماماً والتى ورثتها عن أبى ؟

لذلك شعرت بالخوف عندما توحدت هواجسنا وبكيت كثيراً من أجله وأنا مازلت بداخل عربته. أى حياة تلك التى فرضت علينا بثراء شرورها وشحيح مسراتها .

- قال : لا تبكى .. دموعك أغلى شىء فى الحياة.

وطلبت منه أن يأخذ نقوده ووعدته بأننى سوف أتزوجه قريباً.

- قال : أنا حاسس أن أيامى قربت .. مش عارف ليه

والناس اللى حولك وحوش .. أنا عايز أطمن .

- قلت : أنت مازلت صغيراً وبصحة جيدة فلم هذا التشاؤم .

وكنت أعرف بأننى أكذب ، وأنى واثقة بأن صلاح سوف يفارق الحياة قريبًا ، لكننى كنت أهرب من ذلك الهاجس كهروبى من ذلك الشباك اللعين ، والذى كانت طائرتى تسقط وتلتف حول أعمدته الصدئة الحديدية لسنوات طويلة .

ودعنى صلاح وهو يربت على يدى ، قائلاً :

- أنا كان كل أملى فى أيامى الأخيرة أن تجلسى بجوارى : صدقينى.. أنا مش عايز حاجة تانية منك غير أننى لو مرضت لن أطمئن لأحد غيرك فى تلك الحياة .

* * *

صباح اليوم التالى وكنت قد أعطيت صلاح مرآة قديمة لطلائها باللون الغامق وغابت شهوراً بمصنعه ، وعندما كنت أسأله عنها يقول :

- دى مسمار جحا بينى وبينك

وكنت أغضب من حكاية تلك المرآة فألح عليه لإرجاعها لكن دون جدوى وبدأت أرغب فى نسيانها حتى جاءنى عامل من مصنعه يحملها ، وعندما أخذت المرآة وشرعت فى نزع الشرائط الورقية من فوق البرواز

فوجئت بلونها الفاتح والذى لا أحبه .. فقلت بأن صلاح قد نسى اللون الذى أرغبه وظللت أسبه ، وأنا أتجول بالبيت يملؤنى الغضب ، والنفور ، وبرغم ثورتى مس قلبى حزن غامر ووحشة انطفأت من أجلها ثورتى وتبدلت من فرط الحزن ويقين باقتراب مجهول أتى بأساه ويجنون قد مسنى ، جعلنى أدور حول نفسى وأنا أسب وأبكى .

– لماذا ردّ صلاح صبرى المرآة الآن ؟

– وهل يخبئ لى القدر تعاسات جديدة ؟

وجلست بغرفتى صامتة بعد أن اعتصرنى ذلك الانقباض الذى يصاحبنى منذ الطفولة عند اقتراب الموت من عزيز.

وفى الصباح الباكر عند السادسة أفقت على صوت خفيف كالروح الراحلة يقول :

– صلاح صبرى مات.

وبرغم بكارة الوقت ورحيل الفجر من دقائق قصيرة ..أدرت قرص الهاتف وأنا شبه مخدرة ، وداهمنى وأنا مازلت غفلى صوت ينتحب ، وسمعت نساء يولولن ، وقال الرجل بصوت متهدج :

– البقية فى حياتك .. صلاح مات

ومن شدة ذهولى تركت الخط مفتوحًا ساعات طويلة جالسة فوق الأرض أتكور فى ركن .. أدفن رأسى بين كفى ، ولم أفلح فى اجترار

عبرة واحدة من دموعي المحشورة .. وظللت على هذا الحال ساعات طويلة حتى قرب الظهيرة وأنا مازلت على حالي جامدة مغيبة ، وكأن لا أحد يستطيع أن يراني في تلك الساعات كعصفور مات وقد تعفن جسده ولكنه لازال محتفظاً بريشه الخفيف والهش وكأنني في برزخي وحدي حتى رن الهاتف وكانت أمي .

- قلت لها : صلاح مات .

- قالت : كان يعرف بأن نهايته اقتربت .

- قلت : أنا خائفة .

- قالت : لماذا يا ابنتي .. الله موجود .

- قلت : الناس . . الناس يا أمي .

وعند اقتراب الليل وصل خوفي إلى ذروته ، حتى أبيت الخروج من باب غرفتي وكأن بيتي يملؤه الخطر .. حتى أصوات الجيران كنت أحسها كمؤامرات خفية تنسج لإيذائي أنا وأولادي .. أنصت السمع من وراء الباب لعل أحداً يداهمه ، وأثناء نومي أحس بأن بيتي معلق في الهواء ونحن بداخله وقد أوشك على السقوط والفناء ، خذلتني كثيراً تلك الدلالات الروحية وأسعدتني قليلاً .

- لماذا وهبها الله لي ؟

- هل هي خير أم شر ؟

– لو علمتم الغيب لاخترتم الواقع

– لماذا أنا دون غيرى يا الله ؟

يودعوننى قبل رحيلهم سواء أعرفهم أم لا .. الذين أعرفهم ومرت سنين على فراقنا ، ثم نتقابل صدفة ، أرى وجوههم وقد تشابهت وامتلأت بمشاعر واحدة لا أستطيع أن ألتقطها جيداً ولا يستطيع أى قلم أن يعبر عنها .. لكنها قريبة من الوهن والانسحاب ، ولا تستطيع أن تجمع شتات قلبك وبصرك وحواسك جميعها لتراهم ، فإن فروا من أمامك بعد أن يصافحوك أو لم يصافحوك .. لا تستطيع أن تمسك باللحظة أو بملامحهم وكأنهم خليط من البشر والأشباح فى آنٍ واحد ، أما الذين لا أعرفهم وأرغب سنين فى التقرب منهم لخصالهم الحسنة والتى وصلت إلى مسامعى دون أن أعرفهم تمر السنين وأراهم بالصدفة ويرتاح كل منا إلى الآخر ، ونشعر للوهلة الأولى بالألفة ، وتصل ذروتها إلى حد الفهم العميق وكأننا تعارفنا فى أزمنة كثيرة ومختلفة ويرحلون عنى بنفس الطريقة .. دون وعيٍ كامل منى برحيلهم وقد صافحونى بأياد ليست كأيادى الأحياء .. لكنها أقرب من أياد الموتى بأظافرها التى ترسبت الدماء بداخلها بعد لحظة الموت الأولى ، وتمر ساعات وأعرف بأنهم رحلوا عن الحياة .

تلك هى تعاستى مع دلالاتى الروحية والتى تشعرنى بالجنون بعد

أن نفـدت مـعظم طاقـاتهـا من أجل الشـرور ولم يبق منهـا شيء لمنح السعادة .

* * *

لم يخرجنى من غرفتى ومن فزعى سوى رجوعى لمحمود وعندما جاء نى أصر على خروجى من البيت ، كان يسحبنى بتثاقل وأنا أجرجر قدمى الجامدتين والثقيلتين ورائى ، وعند باب البناية التى أسكن بها انتابتنى رعشة لا أعرف سرها حتى الآن ، لكنها كتلك الانتفاضة التى تصيب الوليد فور خروجه من الرحم واصطدامه لأول مداهمة حقيقية للحياة .

وفى العربة ضمنى إلى صدره وقد شردنا بعيداً ولم يعاتب كل منا الآخر ، ومرت شهور كثيرة وأنا أتجاهل جرح محمود لى ، وكأن تجاهلى لهذا الأمر هو الحيلة الوحيدة والباقية التى أتلاعب بها مع نفسى لمجرد أنها الملاذ الأخير لاستمرارى حية حتى الآن .

لم يستطع محمود أن يزيل حزنى ومخاوفى بل كنت أشعر فى تلك الأيام بأن الأمان مجرد وهم قد بدعناه. وظل كل شيء حولى يبعث فى الشك والتوجس ، فبعد رحيل صلاح صبرى فقدت كل قوة وكأن صلاح الذى لم أشعر بوجوده أبداً هو الحماية الوحيدة لى فى هذا العالم ومصدر الأمان الحقيقى .

واندثرت رغـبـتـى فى ترك المنزل حـتـى كـادت أن تنعـدم ، وبدأت مشاعرى تجاه محمود والرغبة فى الاطمئنان بجواره تتسرب دون رغبة منى ، وبدأت أتأمله من جديد ورغم ذلك لم أستطع التخلص منه بداخلى ولا أعلم لماذا وقد بدا كل شىء واضحًا وحقيقيًا .. لكن بعضًا من كذب مازال ساكنًا بداخلى ، وكأنه جزء من إرثى الذى لا مفر منه .

اتصلت بى عائلة صلاح صبرى ، وخاصةً أخوه الصغير ليعزينى ، ثم سألنى بدهشة :

– هل تزوجتِ أخى المرحوم ؟

– قلت بغضب وخوف : لأ طبعًا .. لِمَ السؤال ؟

– قال : وجدنا بدرج مكتبه قسيمة زواج موقعة من شاهدين ٠

: اصدقينى القول .. هل هو زوجك ؟

– قلت : أبدًا لم أتزوجه .

وبعد أن أغلقت الهاتف تذكرت صلاح وهو يجهش بالبكاء وأنا معه بالعربة وقد قال باضطراب ، وقد اختلجت روحه الفزعة فى تلك اللحظات :

– أنا لازم أعمل حاجة بسرعة ، لازم تعيشى بأمان ٠

وعرفت بأن قسيمة الزواج المزورة والتى تركها بدرج مكتبه هى آخر أفعاله النبيلة معى .. لكى أرث منه ويؤمّن لى حياة كريمة بعد رحيله فأحسست بأن هذا الرجل قد جاء خطأ فى تلك الحياة المليئة بالزيف والخداع والشر . وبعد تلك الحادثة اعتكفت من جديد فى بيتى شهوراً

كثيرة مرت لا أرغب فى رؤية أحد ، وأصبح العالم بالنسبة لى كأكذوبة كبيرة ، عشت بداخلها سنين ثم هوت وفرت بعد رحيل صلاح واكتشافى بأن الأشياء الزائفة هى التى تجذبنا ببريقها المتوهج الزائف ، أما الأشياء الحقيقية فليس لها بريق!

الفصل الثامن
الـــرحيـــــل

بعد اعتكافى شهوراً ، اللهم إلا زياراتى القليلة لأمى ، كنت أحن ليالى كثيرة إلى شبرا الحالمة بناسها وذكريات الطفولة وغنائنا فى شوارعها أنا وجورجية وأشقائها ، خاصةً شقيقها الصغير وهو يحتضن المندولين وهو يعزف لحنًا يونانيًا شعبيًا يردده الأشقاء على نغمات المندولين وقد رنحتهم النشوى وهم يوصلونى إلى بيتى .. وكانت نغمات البيانو الخاصة لأصابع هالة وهى تعزف "تخونوه" وقد حفظناها عن ظهر قلب وكأنها الأغنية الوحيدة فى هذا العالم .. أحن إليها كثيراً برغم شجنها الذى يبكينا أنا وهالة فنفر إلى شارع شبرا نلعق الأيس كريم ونحن نجلس أمام سانت تريز لا يهمنا شىء ولا نخاف شيئًا ، وكأن الحزن الوحيد فى الحياة فى تلك الأغنية فقط حتى توالت الأحزان وماتت والدة هالة فكبرنا قليلاً ، ورحلت جورجيا عن مصر فعرفنا أحزان أخرى وقد بدأت تتسرب منا تلك الفترة الآمنة ، يشدنى الحنين إلى ذلك المنزل الواطىء ، وربيا وتلك الضجة التى تحدثها حولها بكل صخبها وغليانها ، حتى فرت بعيداً عن العالم بدمائها الساخنة من وطأة الحرمان لتقبع ببيت للمسنين تابع للكنيسة ذو حوائط باردة تخدم فى

صمت بعد أن ابتلعت حسرتها وأحلامها .. لكنه الشوق إلى السكينة بعد سنين طويلة من حزن صاخب لا يهدأ أبداً ، وأتذكرها وهى تجرى وراء العربة ونحن بداخلها ،بعد أن ودعتنا وهى تبكى وتولول كطفلة صغيرة ونحن نفارق بيتنا القديم ونخلف شبرا وراء نا دون رجعة ، وتصل الذكريات إلى نفسى لذروتها فأشم رائحة قديمة محببة إلىّ .. رائحة قبلة أبى ، والتى يشبه شذاها رائحة البلح الأمهات ، فإلى متى تشتعل الذكريات فى رأسى وكأنها هى الحياة الوحيدة فى هذا العالم ؟ إلى متى ذلك الصمت المطبق حولى إلا من الذكرى ؟

* * *

اشتد مرض أمى وكنت أجلس أمامها ساعات أتأملها وعلى طرف لسانى ذلك السؤال المحير والمحشور داخل قلبى سنين طويلة :

لماذا يا أمى ألححت علىّ بالسفر وهجرى لأبى وهو يحتضر ؟

وعندما أهم لأسألها أعود لصمتى ، ويشفع إليها عندى مرضها الذى أذلها وأذلنا، وأرى عذابها فأشعر بالخزى من تلك الحياة الواهمة والقبيحة فأضمها بدفء وحنان .. لكن ذلك السؤال مازال يختلج بصدرى طوال السنين الماضية ، وكنت أخاف أن ترحل عن الحياة دون أن تقول الحقيقة .. حتى جاء ذلك اليوم وكنت أجلس بجوارها طوال الليل أبدل لها الوسائد مرات كثيرة لترتاح دون جدوى .. فقد انحشر

البـول بداخلهـا وأنـا أحـاول إخـراج لو نقطة منـه ولم أفلح ، حـتى جـاء الصباح وظننت بأنها غفت فارتديت ملابسى للذهاب إلى العمل ، وعندما اقتربت منها لأودعها وقد طوقتها بذراعى ، ولأول مرة أحس بأن هذا السؤال لم يعد يعنينى أبداً وكان عناقى لها خالصًا صافيًا مفعمًا بحنان عظيم ، ولشـدته اخـتلجت له كل أوصـــالى واخـتنق الكلام بداخلى ، وتضاءلت معه كل الجروح ، وعند خروجى من الباب نظرت إلىّ بطريقة لاأنساها أبداً كتلك النظرات المبهمـة لأبى إلىّ وأنا أودعه لآخر مرة ولا أستطيع وصفها أبداً والإمساك بها ٠٠٠فعرفت بأن أمـى سوف ترحل قريبًا فأسرعت إليها لأعانقها بشوق لم أعهده بينى وبينها ، ووعدتها بأنى سـوف أعـود بعـد قليل ، وبعـد أن أوصـدت البـاب نـازلة الدرج ، فرت دموعى وداهمنى ذلك اليقيـن بأن حياتى الماضية ولت ولن تعود ، وشعرت بغصة فى حلقى جعلتنى أتقيأ فوق درج بيتها وأنا أمعن النظر إلى بابها المغلق ٠

* * *

بعـد أن أنهيت عـملى داهمنى النعـاس وغـفـوت فى بيـتى قليـلاً ، وجـاءنى ذلك الصوت يـهمس لى فى غفوتى ويخبرنى بأن أمى قد ماتت ، فـأدرت قـرص الـهاتف وسـمعت أخواتى يبكين وبولولن ، ولا أعلم ماالذى قلتـه فى ذروة فـزعى ، وحـزنى فى تلك اللحظـة ، ولـم أسـمع من كلمـاتى القارة إلا:

نفس النظرة يا أمى.. نفس نظرة أبى

وأثناء مراسم الدفن شعرت ولأول مرة بأن أمى كانت امرأة تعيسة ورحلت بعد معاناة من الوحشة والوحدة وفرط الحزن على أبى ، وشعرت بأن أبى وأمى قد تعذبا كثيراً فى حياتهما منذ الطفولة لكنهما استطاعا أن يمنحانا السعادة برغم حرمانهما منها. وعند رؤيتى للنساء البائسات حول لحد أمى عرفت بأنها كانت تحسن إلى هؤلاء النسوة فكان بعضهن يولولن بكلمات:

هنعمل إيه من بعدك .. إنت اللى كنت بتدينا .

وعند رجوعنا من مراسم الدفن داهمنى الصمت مرة أخرى والذى استمر معى شهوراً طويلة ، اللهم إلا إذا أجبرت على الكلام فتجىء الكلمات متعسرة ومتقطعة ومقتضبة وغريبة على سمعى ، مرت الأيام وأنا يعذبنى الإحساس بالذنب ناحية أمى .

وطلبت محمود وأخبرته بموتها ، وعندما تقابلنا وكنت بداخل عربته لم أفهم معنى صمتى وعدم رغبتى فى رؤيته برغم أننى أنا التى طلبت مقابلته ، وعندما تركت عربته نظرت إليه وللمرة الأخيرة ورأيته لأول مرة مجرد رجل انتهازى أنانى .. متحجر الفؤاد ، حقود ، وشعرت بالغربة تجاهه وكأننى لا أعرفه وأحسست بأننى تخلصت من عشقى ، ومن رغبتى الدائمة فى البحث عن شبيه أبى. ورأيت حكايتى مع محمود ما هى إلا حكاية زائفة ومخجلة ، وقبل وصولى إلى باب بيتى تبدلت كل مشاعرى القديمة تجاه محمود إلى رماد قد انطفأت نيرانه بماء شديد البرودة ، ولأول مرة ، أشعر بأننى أقف فوق أرض حقيقية، وبرغم ذلك أصبحت الحياة من حولى قبيحة خالية من الأحلام والأوهام الجميلة ...

أين ذهبت تلك النيران المشتعلة بداخلى وذلك التوهج الموجع بداخل دمائى التى فرت الآن بعيداً عنى وكأن ما تحمله شراييني الآن ماهو إلا سائل بارد يخمد الروح ويشل الفؤاد وكأننى بداخل العدم .. ذلك هو الواقع بغير جنوننا .

فحين تباغتك الحقائق وتنفجر فى تفصيلات ربما عادية جداً .. تأتى الصدمة فى ذروة برودتها ، ومع ذلك تؤلم شرايينك وعظامك كأنهم انتشلوك من حمام ساخن ووضعوك رغماً عنك بحوض ملىء بالثلج ، تلك الصدمة الثلجية التى تؤذى مشاعرك فجأة ، المباغتة .. تقتلها فى نفس اللحظة فلا يبقى لديك أسئلة ، وتتسرب الدهشة سريعاً وتقف لأول مرة متوازناً ، ولكنك لا تستمتع بتوازنك فوق الأرض ؛ لأن مشاعرك خلت من الدهشة .. وهذا هو الواقع بدون أوهامك الجميلة .. لذلك لن تعرف تلك السعادة المتوهجة بعد الآن ، ربما قابلت سعادات صغيرة وهشة لا تتحمل جاذبية الأرض وأنت تلتصق بها .. تقف عليها دون تحليق .. لذلك لن تملأك إلا لو تخليت عن الأرض وحلقت معها ، وهذا مستحيل ، وقد أصبح التحليق وهماً لن تعيشه بعد الآن ، وبرغم أننى أقف فوق الأرض ولأول مرة ، ولكن كأننى كنت أعيش بحلم طويل ويصعب على العودة إلى الحياة الحقيقية ، وكأننى روح معذبة تهيم بين الموت والحياة بين الماضى والحاضر ، بين الثلج وغواية النيران بدفئها وأليها الزائف الفتان ، ورغماً عنا يصبح الحاضر ماضى يُفرض علينا ، لذلك كان همى الأعظم أن أهدهد نفسى المنسحبة باستدراج الذكرى بالصمت والتأمل حتى كدت أفضل الصمت عن الكلام لعل رائحة قديمة تأتى من غفوة الزمن تحمل عبق قبلات ولّت بشذاها المنسحب والخالد رغم الثرى . ورغم ثلج الواقع الذى يلف فؤادى بأكفان ناصعة البياض قد برأت من كل رائحة .

المراجعة اللغوية : نيرمين ممدوح
الإشراف الفني : أنچي چورچ

ما الذى تحمله لى الأيام الآتية من أمنيات بليدة وأحلام مجهضة ؟ ماذا أفعل بروحى الميتة وأطلالها المنسحبة بعد تخلى تلك النشوة عنى ؟ تلك الأوهام البراقة التى كانت تبهرنى كما كانت تلك الشظايا للصواريخ والألعاب النارية تبهجنى وأنا طفلة صغيرة لم يكن رذاذها الملتهب يخيفنى ، ولا سخونتها فى يدى تعنينى، لكنها النشوة الأخاذة والمبهمة لذلك الوهج ، ذلك الألق الزائف .

